
تأليف خيرة من الكُتاب السودانين
مجموعة
قصص سودانية مختارة

مجموعة قصص سودانية مختارة

تأليف خيرة من الكُتاب السودانيين

الطبعة الأولى: 2023
ISBN: 978-91-8026-038-1
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2023-11-06-11-44
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com



فهرس الكتاب

الإهداء

إلى الوطن (السودان)

إلى كل سوداني. ..

وإلى من شارك في الكتاب...

الشكر والعرفان

إلى الاتحاد العالمي للمثقفين العرب عامة وإلى أعضاء مكتب السودان خاصة..

المقدمة

أطلق العنان إلى قلمك وأكتب، أبدع ولا تتوقف حتى لو عاندتك الحياة عاندها أخبرها أن الجميع سيصل إلى أحلامهم بإذن الله إن أتو باكرًا أو تأخرو، لا يهم متى وصلت وكيف المهم أنك قد حققت حلمك ووصلت...

مرمر محمد

مدير مكتب الاتحاد العالمي للمثقفين العرب في السودان

مَنَاضِدٌ مُلَوّنَةٌ

الهادي علي راضي

أَدركَ تماماً أنّ ما حدثَ.. ما كان مقدراً له أن يصل حده الكارثي لو لا الذي فعله وَدْ الخَتيم قُبيل لحظاتٍ من موت (الرسالة) زوجة المؤذّن. رأى ما حدث بكل تفاصيله، ذاكرته تعبأت بكل ما هو مزعج ومقيت، حاول بشكل ما أن ينزع ما رآه عن مخيلته عسى أن تعود الطمأنينة إليه.. بَيْدَ أنّ صورة ود الخَتِيم وهو يُنفذ فعله، أبداً لم تفارق خياله، وما يزال صوت وَدْ الخَتِيم يرِنُ في أُذنيه مهدداً:

- سأقتلك إن أخبرتَ أحداً بما رأيتْ.

تأبط انكساره ومضى.

لم تكن زوجته بالمنزل حينما غادر الدار عند الصباح الباكر، ولم تعد حتى لحظة إيابه عند الظهيرة، تفيأً ظل خوفه واندهاله وتداعى جالساً.. بعد لحظات أطلت زوجته من الباب قادمة من منزل العزاء، وجدته جالساً على (بمبرٍ) مهترئٍ وأمامه منضدة فضية اللون.. تستند على ثلاثة أرجل، مثلثة الشكل، عليها كوب شاي لم يُشرب بعد.

حين دنت منه أخبرها بما رأى. تهاوت على الأرض من هول ما سمعت. تماسكت قليلاً، وبأنفاس متهدجة وجهت إليه القول:

- سأقتلك أنا، بيدي هاتين إن لم يقتلك ود الختيم إذا عَلِم أحد بما رأيت.

استندت على ركبته وقامتْ. تحركتْ صوب الباب وخرجتْ.

سلامٌ عليك يا أبتي. قالت.

استقر الوالدُ قاعداً على (عنقريبه) القديم. حيّاها ودعاها للجلوس .

أزاحت من أمامه **منضدة ذهبية** اللون، تستقيم على رجلين اثنتين، يربط بينهما وتر من عود الصندل، بيضاوية الشكل، أبعدتها قليلاً وجلست عن يمينه. مالت على أُذنه ثم أخبرته بما رأى زوجها.

كما الملسوع هب واقفاً، انتعل حذائه على عجل واتجه صوب الباب.. وقبل أن يخرج استدار ثم قال:

- سأقتلكما إن علم كائن بما حدث.

مهرولاً اجتاز ساحة احتفالات المولد. انحرف يساراً بمحاذاة مسجد البلدة، حين عبر أمام منزل المؤذن سمع نسوة يبكين. واصل سيره..

عند مشارف البلدة من ناحية الغرب، توقف أمام باب. طرقه، لم ينتظر أن يُفتح له. دلف مسرعاً. وجد الخَتِيم قد فرغ لتوه من تناول طعامه وزوجته تهم برفع الإناء عن **منضدة خضراء**، دائرية الشكل، ذات رجل واحدة.

تهاوى على أريكة قرب الباب، استجمع قواه وقال:

- يا أبا الختيم تعال. اجلس هنا قربي، أريد أن أخبرك.. ثم همساً أخبره بما فعل ابنه.

اتكأ الختيم على المنضدة التي تجاور الأريكة ونهض. تناول سيفاً كان معلقاً على الحائط، جرده من غمده، وضعه على عنق ضيفه ثم قال:

- سأقطع رؤوسكم جميعاً إن أخبرتم أحداً بما سمعته للتو.

كالبرق انسل الختيم خارجاً، تاركاً ضيفه المذهول يلوك في ذهنه احتمالات ومشاهد كئيبة إن صدقت رواية صهره عما فعله ود الختيم.

سار الختيم مخترقاً الحشود المتلاطمة وسط سوق البلدة قاصداً ركن الجزارين، لاهثاً وقف قبالة ابنه. كان يفصل بينهما **منضدة حمراء**.. مستطيلة الشكل، عليها شرائح لحم وأكوام من عظم، قال:

يا بني.. اقترب، أريد أن أسألك. دنا ود الختيم من أبيه. اقترب الوالد من أُذن ابنه اليسرى.. وهمس.....

رأى الناسُ بعدها الدماء تخرج من بطن الوالد كالنوافير، ودماءٌ أُخرى بدأت تتخثر على النصل.. وودالختيم جاحظ العينين ينظر إلى جثة أبيه متكومة تحت رجليه.

ذاكرته المشوشة استعادت حديثاً سمعه منذ زمن بعيد.. حديثٌ لم يتذكره أبداً طيلة عقود، الآن.. الذاكرة تستعيده بكل تفاصيله الغرائبية.

خصّته بأسرار البلدة كلها، أخبرته حينها أن الرجل – شيخ البلدة الحالي – سيكون سيد قومه، وسيتزوج بامرأة تسكن غربًا، سوف يكون مهرها منضدة بلون الذهب، بيضاوية، يربط بين رجليها الاثنتين وتر من عود الصندل، وسوف ينجبان بنتاً جميلة، يتزوجها رجل خجول، يكون مهرها منضدة بلون الفضة، تقوم على ثلاثة أرجل، وأخبرته أن أمه حضرت إليها ذات يوم، كانت تخطط لإفشال فكرة أبيه بالزواج من امرأة أُخرى.. فمرت بذاكرته تعويذة العرافة التي تقبع في ركن (الديوان).. منضدة بلون العشب، دائرية الشكل.

ذاكرته الآن تصفو بشكل غريب، تستعيد صوت العرافة بجلاء ووضوح كأنما تقف أمامه الآن.

الدم متخثرٌ على النصل وجثة أبيه تحت رجليه.. الصوت الرخيم يتردد كما الصدى، نابعاً من ماضي كان منسياً تماماً: (وأنت يا ابن الختيم.. في يوم ما ستكون غنياً، ولكي تكون كذلك عليك باقتناء منضدة حمراء بلون الدم، مستطيلة الشكل، ضعها في مكان عملك، ثم ابحث عن امرأة تحتضر واقترب منها، لامِسها، افعل معها ما يفعله الرجل بزوجته، وسوف تكون أغنى الأغنياء، ولكن يجب أن يكون ذلك في الخفاء، احذر.. ثم احذر أن يراك أحد، وإن حدث ورآك أحدهم.. سيموت أبوك).

إضاءةٌ خافتةٌ على وجْهٍ كَذوب

شاذلي جعفر شقَّاق

في هزيعِ الليل الثاني والبدرُ يبلغ تسعةَ عشرَ يوماً أعقابَ خريفٍ لا زالت نفسهُ تحدِّثه بمراودةِ الأرضِ عن نفسِها مُراودةَ مُتخَمٍ أمسى يشُم من حاشيةِ التمنُّعِ على سبيلِ العبث من النوعِ الذي ينأى بنفسه متى ما دنتْ السانحة !

تقلُّبُ المزاج المناخيّ يبعثُ بنُسيْماتٍ مُشبَّعاتٍ بدُعاشِ المطر ، تزعزعُ استقرارَ البعوض العاكفِ على امتصاصِ دماءِ النائمين والمؤرَّقين ..حفيفُ شجرةِ الحنَّاء المضَمَّخ بأنفاسِها يُناغي هدوءَ اللَّيل ..كيس البلاستيك العالقُ بسلك الكهرباء الرئيس يتَشَدَّقُ بالفوضى رافعاً صوتَه فوق صوتِ الحفيف ..النُباح المتباعدُ الذي لا يشي بأهميَّةِ حَدَث ..فجأةً تفزع الأطيارُ من أوكارِها المستعْصِمةِ بمخالب شجرةِ السِّدْرة ، مُتخبِّطاتٍ في الهواءِ دون هُدىً .. بعد قليل ينسحب –خائباً– قطٌّ متشرِّدٌ من مُحاولةِ صيْدِه الخاسِرة! حنفيَّةُ المياه تُصْدرُ نَخيراً لا يبدو صادقاً كي يَعْقُبه اندلاقُ المياه.. عدَّاد الكهرباء يلفظُ أنفاسَه الأخيرةَ بتواطؤٍ رومانسيٍّ معهودٍ فيه مع إطلالةِ البدْر المنير مجازاً، إلاَّ أنَّه ينحازُ حقيقةً إلى الأربعاء و(عقاب) الشهر!

البدرُ يتسيَّدُ عرْشَ السماءِ رافعاً دعمَ الضُّوءِ عن النُجيْماتِ الذابلات، مُستأثِراً لنفسِه بالبهاءِ والأُبَّهة، تَحفُّه هالةُ السُّؤددِ وبحبوحةُ الصفاءِ البادية في استدارةِ وجهِهِ الوضيء ..وكُلْفتُه الساحرة ذات المقدرةِ الفائقة التشكيل كحِرْباء، والتأويل كرؤيا، والدَّلالة كنَصٍّ مفتوحٍ مات مؤلِّفهُ بناءً على رغبة الوريثِ غير الشرعي المتنكِّر في صورة المتلقِّي السِاهم في (ديكارْتيَّته) الهائمةِ على وجهها، لا للتدبُّرِ ولا للتأمُّلِ، ولا للبحثِ

عن حكمةٍ ضالَّةٍ أو خيطِ حقيقةٍ أبتر أو حقٍّ زنيمٍ أو باطلٍ مؤثَّلٍ! إنَّما تنكَّبَها —بفقهِ الضَّرورة— لملءِ فجوةٍ عاطفيَّةٍ طارئةٍ انفلقتْ داخلَ قلبِه الفارغ دون أن يلْبسَ لُبُوسَها!

كلُّ ذلك التطواف البصَرَي والسَّمْعي وأنا مُسجًّى وحدي كرئيسٍ مخلوعٍ يُعالجُ عُزلتَه بتأمُّلِ ظلالِه العملاقةِ المتشابكةِ على جُدُر وحدتِه الكئيبة ! وحدي أبسُط ذِراعيَّ وسطَ فناءِ ذاتي القفْرةِ التي هجَرها الحبيب، وكُلفْةُ البدرِ ترسم صِبْيةً يتقافزون على المروج الخُضْر والأزهار الضحَّاكةِ المياسم حول بُحيرة المرَحِ ونوافيرِ الضِّياءِ.. يُتابعُهم عن كَثَبٍ آخرون يَرْفلون في أسْمالِ دهشتِهم الفضْفاضة وقد تَساقطتْ تحت أرجُلهم فِخَاخُهم ونِبالُهم!

لا يزال البدرُ يجَرْجِرُ أذيالَه تبخْتُراً في حلقةِ الليلِ المهيب. تُزعجُني أغنيةٌ فَجَّةٌ في أذني اليُمنى.. أُحاولُ جاهِداً تفادي الطَّنين.. تنتزعُ انتهازيَّةٌ بلهاءُ خرطوَمها من ساقي اليُسرى.. تمرُّ تحت البدر سحابةٌ تائهةٌ كفتاةِ ليلٍ لم تقْنعْ بنصيبِها من هزيعِ الليل الثاني ! أرفع بَصَري كرَّةً أُخرى فإذا بصبايا ينفُذن من مركز الكُلفة إلى حاشيةِ الهالة، يأخُذن صوراً تذكاريَّةً أمام القمر كأعظم (ساندويتش) برغر أو هوت دوق يتجاوز مقياس جينيس، كما تُغنّي أخريات وتهتف باسم القمر: (يا قمراء.. يا قمراء.. اقلبي السنْسنة الحمراء) يحمِّلْنها أشواقهنَّ ورجاءاتهنَّ للغائبِ بالعودة، وقد تهاوتْ تحت أقدامِهنَّ أزهارُ البامية التي رَسَمْنَ بها حِنَّاء على كفوفهنَّ البضَّة وأقدامهنَّ الصغيرة!

اضّطجعُ على شقِّي الآخر.. أعيدُ بدورِي النظرَ في رأيي القديم الذي يسْخرُ من آهاتِ الشُعراء والمغنّيين الذين يَصِفون الأرَق وطولَ اللَّيلِ ودموع المحبِّين على وسادات الشوق والصبابةِ والهجْرِ والنَّوى، تنبُت للبدْرِ غمَّازتان.. تبينُ نُدبةٌ فوق حاجِبه

الشَّمال.. يكشف عن ساقين مُمتلئتين.. تتطاير خلفه خصلتان جامحتان.. تخاصر كُلفتَه سحابتانِ كاسيتانِ عاريتانِ، تغازلانه بروحين أخفّ من نُسيْماتِ الفجْر.. وضحْكتين أعذب من خريرِ الجداول.. تتشكّلان كَتَلّتين خَضراوين بينهما مُنحَدَرٌ يُفضي إلى ثلاثة أرباع استدارة كمقعد يؤدي دورَ شاهدِ العيان — في حضرةِ أصيلٍ حالم – على طقوسِ غيابِ الشَّمسِ ومراسمِ ايلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ على صفحةِ الشَّفَق المِصْفرَّةِ الآيلةِ للاحْمرار.. لحظات التسليم والتسلُّم بين الحضور والزوال.. بين الضِّياءِ والظَّلام.. بين التشكُّلِ والتَّلاشي.. بين البداية والنهاية.. تنتشلني لسعةٌ في الصُّدْغِ اليَسار؛ تُعيدني على صهوةِ تنْهيدةٍ إلى سوء المآل.. كيف تؤول كلُّ تلك المعاني المتسربلة باليقين الراسخ والعشق المِشبوب إلى العدَم؟! كيف يُجدبُ المكانُ قبل أن يرتدَّ إليه طرْفُه، وكيف يموت العمرُ بموتِ الصَّباحات الخاليةِ من توقيعِ السجع على غصن القلب النضير؟ وكيف تموت الأمسيات الحالمة على ضفَّة الوعد المطرَّز بالقصيد دون أن تجد مَن يُشيّعها —غير مأسوفٍ عليها– في هذا الزمان الأغبرِ إلى مقابر الخِيانةِ العاطفية؟! كيف يرسم الليلُ بسدولِه بيتاً لعنكبوت النهاية والخراب لبدايةٍ كانت من وحيِه ومن بنات ايعازه؟ ولماذا بانتصاف هذه الليلة الليلاء انتصفت القناعات والثوابت وغار البدر وتغيَّر مسار أنجُم المنى وتبدَّل دَيْدَبان الفرح بتغييرِ سِرِّ الليل وضابط الحزن العظيم؟ ماذا دَها هذا القلب الشَّفيف؟ أيُعْقَلُ أنَّه انقلبَ على نواميسَ الحُبِّ كُفراً بآياتِ الصِّدْق ومُعجزاتِ الوفاء وكراماتِ الإخلاص؟ وهل يعني بالضرورة اتِّباع التخلِّي بالاعتناق الجديد؟ ألا يُمكن لهذا الإنسان الغريب –الذي يُنازعُني لفافةَ التبغ بعد غيابٍ طويل— أن يعيش بلا كُفرٍ ولا اعتناق؟ وهل اللجوء إلى النقيض نكايةً بالنقيض أم تَعلَّةً وتشافي؟

ثمَّة يدٍ معروقةٍ تناولني لفافة تبغٍ من وراء ظهري، ومن بين سُحب الدُّخَان الداكنةِ جاءَني صوتُ عفريت نصفِ مسطول كما يُخيَّل لي وهو يغمغم: متى ما سقطتْ راية الصدق؛ انتصبتْ راية الكذب عاليةً خفَّاقة! قلتُ له: ألا يُمكننا تصوُّرُ هذا العالَمِ بدون صدق وبدون كذب؟ ضحك حتى وضعتُ سبَّابتي في أذنيَّ حذر الصمم ثم قال وهو يُمسك راسي حتى لا أُديرها نحوه: إنها ثنائيَّة الكون يا غبي! خُذ عنِّي ولا تُبالي؛ فإنَّ خطايا البشر جميعاً مصرورةٌ في ثنائيَّة (التُخْمة والمِسْغبة)! ثم ربَّت على كَتِفِي بإحْدى يديه الضخمتين بينما شقَّ صدري بالأخرى وبسرعة البرق انتزع قلبي وبصق عليه مرّتين وهو يقول (الكذب الكذب) ثم أعاده في مكانه قبل أن يغادر ضاحكاً كقعقعةِ الرصاص، نافثاً خليطاً من روائح الرِّمِمِ والمدابغِ وروثِ البهائم ومخلَّفات الخمَّارات، وذؤابتا ذيلِه تنسحبان خلفه كحبلين من الدُخان الكثيف!

وبعد أن قُضي الأمر وغيض الدُّخان؛ وجدتني وحدي، مُستلقياً على قارعة الذُّهول، ولكن في لُبوسِ اثنين لا أعرفهما وفي الوقتِ ذاتِه لا أجهلهما، تحسَّستُ رأسي، صدري، وبطني التي رشَّحتْ نفسَها جنباً مُريحاً وقد قرْقرتْ لحن (التُخمة والمسغبة) وقسماتُ الفجرِ الجديد تُنبئُ بدُنُوِّ خطىً على دربٍ جديدٍ وبرؤى مختلفة!

في الصباح، كانت رائحةُ السَّمك المِشوي تفرِضُ سطوتَها على صالةِ المطعم الرحبة.. حركة الزبائن الدائبة تُعربُ عن شراهةِ الالتهام عن الكمِّ الهائل من الأسماك التي صيدت من سلْسلِ النيل البارد لتصطلي في جحيم الزيت المغلي.. النادلاتُ يرفُلن في زِيِّهنَّ اللبني وهُنَّ يَجُسْنَ على المِناضد كفراشاتٍ مُفعماتٍ بالتمنِّي واحتمال التنقُّلِ بين شتَّى أنواع الزَّهر.. رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ وشبابٌ من الجنسين، يتحلَّقون حول

المناضد، بعضٌ مُكِبٌّ على الموائد في خُشوع.. وبعضٌ يستحثُّ العاملين لإزالة الأطباقِ وفتاتِ الطعام من أمامه درءاً لدواعي التُخمة .. وبعضٌ يبحثُ له عن موقع طاولةٍ يمكّنه من إزاحة البراقع!

في ركنٍ قصيٍّ جَلَسَتا مُتقابلتين كعاشقين على أُهْبةِ التَّقْبيل.. تنفلتُ ضحكاتهما بين الفينة والأخرى من كورال همْهماتِ الصالة الرحبة لتعزفا لازمةً لا يسمعها إلاّ ذو حظٍّ عظيمٍ اختار طاولةً مع سبْق الإصْرارِ والترصُّد تُتيح له متابعةَ المشهد عن كَثَب لإرسالِ ذبذباتٍ بصَرَيَّةٍ وبالتالي التقاط ردود أفعالها !

تقابل الولدان في جلستهما.. شمَّرا عن أكمامِهما فَتْكاً بالبُلطي المشوي واحتساء مرَق (القرقور) بتلذُّذ ذي معنى لأُلي النُّهى.. قال أحدُهما:

- ليس معهما أحداً بدليل أنهما قَضَتا وطَراً بالمائدة وأمامهما زجاجتان فقط!

قال الآخَر من خلْف نظَّارته الطبيَّة:

- عندما تكون الإضاءةُ خافتةً يتبدَّى ظلُّ الخصلةِ كنُدبةِ عِشقٍ على خدٍّ أسيل.. تتأرجح رابيتان مُترهِّلتان في النصف الأعلى من اللوحة تغبِّش رؤيتهما جدائل نخلتين راقصتين يتلامس رأساهما طرباً ، بينما يستغلُّ ساقاهما العريانان المكتنزان أسفل اللوحة الأكثر عتمةً من النصف الأعلى .. الأكثر عتمةً من وجه الحقيقةِ المبْيَض تجمُّلاً بهالةِ الفجر الكذوب!

تنحْنح الولد الأول.. صلحَ ياقة قميصه وقال:

- آنستُ نارَ غوايةٍ لعلِّي آتيكَ منها بخبرٍ يقين.. أحْسبُ أنَّ لهيب شوقها يدعوني أنْ هيتَ لك.. ثرثرةُ مُدنٍ إحدى العينين وحواريها وأزِقَّتها تتنامى إلى سمْعي حكاياتٍ وقصصاً وأساطير لأبطالٍ لا يزالون يتعلَّقون بأستار رموشها الممعنة في الخداع! كما يشي صمتُ بداوة إحدى العينين بهدْهداتِ الغفلةِ المكرورةِ، تعاويذ المغاربِ المكنونة، تمائم السِّفْرِ القديم المعلَّقة على جيد الفِطْرة السليمة وصكوك البراءةِ للزمانِ الأوَّلِ التي لم تُصرَف حتى الآن وإنْ كانت على وشكِ أنْ تقدَّ قعْرَ جُرابها الموكَّأ باليقين!

استطعم الولد الثاني طعم الحِساء لتحديد نسبةَ الليمون والشطَّة ثم قال:

- دعْنا نطارد – يا صديقي – شخوصاً نمطيّين داخل هذه القصَّة التراجيكوميديا الافتراضية.. لوحةً سرياليَّة.. أبطالاً وهميين في أحراش هذه الرواية الكذوب.. دعنا نمسك بتلابيب فكرةٍ بَغيٍّ تذوِّب الكُحلَ الرخيص على خدِّ الاستعطاف وحُبيبات العرَق على أرنبةِ السِّحْر لقصيدةٍ مُبتذلةٍ رُفعتْ مئات المرَّات على منابر الوعي دون أن يصفِّق لها أحد! باختصارٍ دعنا نُزجِّي وقتنا ريثما جاءتْ عشيقتانا!

مالت إحدى الفتاتين على أُذْن الأخْرى وقالت :

- ما لهذا الولد يتلكَّأ هكذا كأنَّه يُريد القفْز فوق جدارٍ مُتهالكٍ؟ لقد سئمنا هذا الانتظار المقيت وأخذ الجوعُ منَّا كلَّ مأخذٍ... مللْنا دخولَ هذه المسرحيةِ الساذجةِ الرتيبة.. ما المعنى من الجلوس على فتات مَنْ سبقونا على هذه المائدة لادَّعاءِ تناول الوجبة ونحن نُناصبُ هؤلاء الحمقى شِراكَ الغواية والخداع!

تبسَّمتْ الأخرى وقد أرادتْ أن تجعل من هذه المرافعة دعماً لدور صديقتها الجديد:

- لهذا —يا عزيزتي— أردتُكِ أن تذهبي معي خلْف الكواليس فما يُعرَض على الخشبة أقلُّ بكثيرٍ ممَّا يُعرَض خلفَها في الظَّلام.. الآن بيننا وموعدنا ذاك ساعة فلنجعلها (مرازقة) خفيفةً وسريعةً.. فهذان الولدان ليسوا طريدتَيْنا الُمثلاوين ولكن في ظلِّ هذا الكساد الرُجوليِّ وقلةِ العرْض المحيط؛ يُمكننا أن نُزجِّي بهما وقتنا ريثما جاء عشيقانا!

قال الولدُ وعيناهُ في عَيْني أكثر البنْتين جُرأةً:

- ثُنائيَّةُ الكونِ تقتضي أنْ ترتحلا إلى طاولتنا أو نأتي نحن إلى طاولتكما!

قطبتْ البنتُ جبينها ثم رفعتْ حاجبيْها وهزَّتْ منكبيْها حتى ماج صدرُها وقالتْ:

- هل تعرفني؟ مَنْ أنت؟

قال الولد وعلى شفتَيْهِ ابتسامةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها:

- نعم.. أنتِ فاطمة السمحة وأنا الغول!

ضحكتْ البنتُ حتى اهتزَّتْ الطاولةُ وسقطتْ الزجاجتان الفارغتان وقالت:

- حسناً مَن تكون هذه ومن يكون ذاك؟

- هذه فاطمة القصب الأحمر وذاك ودْ أُمْ بُعُلّو!

هنا انتفضت الفتاة الأخرى كاشفةً عن نحرها مشرئبَّةً برأسها في محاولةٍ لإبراز عُنقها الذي تمطّه دائماً كبعير مزجورٍ في حظيرة سُخلان!

- ما دخلُكما أيها الفضوليَّان فيمن يكون ومَنْ أكون؟ دعْه يأتي إلى هُنا فالرِّجالُ قوَّامون على النِّساء!

- إذا كان ذلك كذلك فالأوجبُ انضمامُكما إلينا أيَّتها المجادلتان!

في هذه اللحظة قفز الولد الآخر من هناك وفي يده قطعة سمكة لينضمّ إلى الثلاثي مدافعاً بلسانٍ (جَنْدريٍّ) مُبين:

- دعني أخالفكَ الرأي يا صديقي، ففي تفسير أحد المحدَثين للقِوامةِ أنّ المرأةَ تُقْعدُها ضروراتُ البيولوجيا، لذلك يقوم الرجل على خِدْمتها كما يقوم النادلُ على خِدمةِ الزبون!

وقبل أن تتلاشى دهشةُ الفمِ المفتوح كان (ودْ امْ بُعلّو) قد زجَّ بقطعةِ السَّمك في فمِ فاطمة القصب الأحمر إلاَّ أنَّ الأخيرة عضَّتْ الرجلَ وهي تزدردُ اللقمة السائقة ، حتى صاح :

- أتعضِّدين اليدَ التي تمتدُّ لإطعامِك أيتها الجاحدة ؟!

- هكذا أُعبِّر عن مَحبتي وشكري وفائق امتناني لعشيقي الأوَّل!!

وهكذا تنداح دائرة المؤانسة بين الرباعي الذي تتعالى ضحكاتُه وسط وخْذاتِ شوك السَّمك ودُعابات التذكُّرِ لعلاقةٍ امتدَّتْ زهاءَ ثلاث أو أربع دقائق حسوماً! تقول (فاطمة السمحة) وهي تقصُّ قصَّةً كأنها من عصرٍ سحيق :

- تتذكَّر لمن ثألَتكْ عن إثْمَكْ ؟!!

- الله الله الله من هذه اللثغة العجيبة :

يا لُثغةً معطونةً بالغُنْجِ تنضحُ إشتهاءْ

يا لُثغةً تُعطي المكانَ بسحرِها (صاداً) و(هاءْ)

رُحماكَ يا طَرَفَ اللِّسانِ فإنَّني أعلنتُ (للثاءِ)الوَلاءْ!!

تتظاهر فاطمة القصب الأحمر بالغيرة الحمراء وهي تصطنع لثغةً في الحال بمقاييس فكاهتها :

- يا ثلاااام ..أنت ثاعر ؟

وهكذا تستمرُ الجلسةُ العامرةُ بكلِّ شيء إلاَّ الحقيقة ، حتى يرنّ الهاتفان ؛هاتف فاطمة السمحة وهاتف الغول في آنٍ واحد ..تُسدِلُ فاطمة السَّمحة السِّتار على المسرحية بتلويحةٍ من يدِها التي تحمل قارورةَ (الشامبيون)مُشيرةً لصديقتها أنْ هيَّا بنا .. غادرتا وهما تتثنَّيان - في غُنجٍ مُزيَّفٍ كانتفاخِ الدَّجاج المِحْقون بالوهْم اللاحم — صوبَ عربة (الفيستو) البيضاء ! ومن العربة ذاتِها تنزل اثنتان — دون أن يحدُث حادث مواجهةٍ بين الفتيات — في طريقهما صوبَ الطاولة نفسِها في ذلك الرُكنِ القصيِّ والتي كانت تجلسُ عليها الفاطمتانِ المتقابلتانِ كعاشِقين على أُهْبةِ التَّقبيل!

الفلكلورية

ظروف متداخلة

يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم استفتاحية من فم صابر الغلبان المليان بالصاعود الذي لا يفارقه قيد أنملة، كمعاش أبنائه متلازمين، كالماء والشجر والرياح والصحراء.

سفت الصباح أيقونة لتوازنه كمنشط للمرثون الطويل من الصباح حتى المساء.

عدو خلف لقمة العيش الجاف تلفحه الشمس بحرها وهو يقود تك تكه المتهالك

مثل سنين العمر المسحوبة على أطراف أصابعه كأنها تخاف الانزلاق من بين جوانب

وجهه الكئيب مثل حركة رمال الصحراء، وبياض الشعر الذي نبت في كل منفذ من جسمه

يسمح بتنفس بصيلات الشعر مثل العشب في أول ما يشتم رائحة المطر يفرد سواعده لمعانقة

التراب يخرج على باب الله ويعود بما رزقه الله يحمل كيس عيش وحزمة خضار ونص رطل لبن

للصغار، التي تلعب فيه بدورها حرمه المصون(ست البنات) بأن تجعل للماء لون يخالط اللبن ليحمل

معه صفة الزوبان كما يقول الكيميائيين ليكفي أفواههم الأربعة وهاتفه الخرب، له وظيفة عالية جدا

مدير العلاقات العامة والخدمات. كاتب رقم هاتفه على تك تكه المهلهل يشابه فريشة الأرصفة في

جهجهة البعد البصري في تمييز الأشياء (سماعات، طمام، شواحن، عجور، كفرات، موية، بطيخ، موز،

شمام، عطور، مانجو، سندوتشات، تسالي، فول مدمس، شتات الشاي والدكوة، اللحمة، الشرابات، الداخليات للجنسين مخلوطين بلا حياء) وهو وأصحاب الكوارو والدرداقات والشحاتين وبعض الواعين من بني البشر

وكثير من المجانين والعانسات يحمن ونظراتهن تخيف الشباب.

طريقه ليس كالطريق ولكنه فرض عليه أن يمشي بهذا الطريق كغيره من بني المزاليق. شهادته جامعية بدرجة الشرف الأولى تقدير جيد جدا من جامعة معترف بها داخلي وخارجي كلية هندسة شبكات كمبيوتر مثله والأطباء والزراعيين والمحاسبيين والقانونيين والإعلاميين والآداب. شهادات الوجع والألم الجميل لا يتالمون من حالهم لأنهم الفوه والفهم، ولكن يحسون بزفير القهر والانتقام وضياع المستقبل عندما يرون الطلاب ذاهبون إلى كلاليهم وفصولهم لم يفكر أن يدخل أبنائه الرياض حتى لا يعيشون نفس المأساة وضياع أباءهم الأولين يوصي (ست البنات) أن تعلم بنتها كيف تصنع الطعام من المنيوم؟

في زمنها القادم لأنه مستقبلها الباهر مع بعلها. وينظر إلى إبنه أن يكون شفت في السواقة والجوكية حتى يساعده لحظات التعب والرهق. يدنكل سفته كالعادة وينتظر رنة هاتفه الذي يتفحصه كل الفينة والأخرى له ثلاث بطاريات اسبير عند الطلب دائما ما يجلس جوار صديقه (شريف) مهندس نفط لأنه يستفيد من خدماته في بعض أمور الكمبيوتر الذي يعمل به إدخال نغمات وصور وأغاني وبعض الأفلام ذات الطلب الخاص وأكثر زبائنه من البنات وبعض السيدات المحرومات وهو بدوره يترك هاتفه في الشاحن طوال الوقت. له قليل من الزبائن تجار الجملة والقطاعي. وفي الحي زوجته تعمل له إعلانات مجانية لكل ست عايزه ترحل دولاب، سرير، موكيت، وغيرها من الأشياء. حتى النيل سيرحل لإقامة السدود فكيف ولا عند حزمة النقود؟

وكل ما اتته نقلية في الحي كان لها نصيب الأسد لأنه يعرف زوجته مثل جوع بطنه إنها لا تفرط في ليلتها لأي سبب من الأسباب فلذلك يشغلها بهدية حريمية لتكون مبسوطة وسطهن ويعود متعب من عمله الشاق شحن وتفريغ، والخج طوال المشاوير ليس كخج صناديق الأصوات النشاذ. ولكنه خج من نوع آخر خج الجسد المنهك من ظلم السنين وجورها الجاف يعود مع مداخيل القلابة والمنكوبين وهي بداية مخاريج الميثورين والمستورين من سؤالات من أين لك هذا؟

وهنا إذا زادت الصينية عدد صحونها بأكثر من وأحد دخلت شبهة الحرام. وهناك لا شبهة تحوم حول الصينية المزدردة بعدد الصحون حتى شفتيها تأن من الوطأ. وحين دخوله تنفض (ست البنات) شملتها المعتقة برائحة الطلح المسوس لأنه الجيد

بين همساتهن فيفتح ثلاجته ليضع الخضار ومعه كيس صاعوده وينام على أنغام مطالب أبنائه من الأرق وخلفه تفتح (ست البنات) الثلاجة وبخفه تشم رائحة كيس الصاعود باستنشاق متقريفة، ليعيد لها توازنها من بحت النهار وتعود أنثى لها واجبات،وحقوق تكمل بها المساء وهكذا دوران الحياة وتعايش مع الوضع وآلام المخاض واستسلم للواقع ليستكين ويرتاح إلى أصوات الشارع الفلته والاليمة والسوق الموجع فيتحسس كيس صاعوده كل ما أحسه بالملل والفراغ والكسل بدأ يدب في جسده يخرج كيسه ويدنكل سفه كاربة مع كباية شاي من (شاهندا) خريجة صيدلة. فتجيد وضع البهار في الشاي بطريقة علمية حتى أصبحت محط الأنظار. سرح في عالم اللا معقول يحلق بكراماته المتعددة (الزواج، الإنجاب، وتحمل المشاق، والعيشة دون أن يحدث ضجر، أو تسول له نفسه بالخروج إلى الشارع لدعوة إسقاط النظام، أو الإعتصام من العمل وأي عمل يضرب عنه) سرح في اللا وع يحلق عاليا بالزهو والفرح لانتصار فريقه البرشا على وصيفه الجلفوط يحمل فانيلة رقم عشرة يجري بها وسط المارة ويهتف:

- سيك سيك معلق فيك.

ناسيا أنه يحمل مفتاح التك تك في يده وهو في وسط السوق ينظر إلى العيون الواجمة نحوه واحسه بالتوهان وقيمة اللا عودة إلى ما كان. وهمس:

- أنا مالي ومال القراية أم دق...!؟

قصر برمنجهام

ابوسفيان محمد يوسف محمد (الكردفاني)

السماء ترسل رياحها قوية عاصفة والثلوج تتساقط بغزارة ، لتكتسي الأرض بالأبيض وتحيل المكان إلي جبل جليد ضخم، رغم ملابس الشتاء الدافئة ورداء الفرو المسدل على جسده ، كان روحه يتملكها البرد الشديد ، تصطك أسنانه وتتحرك بسرعة مثل ماكينة خياط ماهر وتتجمد أطرافه، كان عليه أن يدلف إلي حانة عند نهاية البناية أمامه، يحتسي شيئاً دافئاً أو يجد جسداً يعانقه ليمنحه الدفء، دفع الباب وتوغل إلي الداخل ولكن مع صخب المكان وضجيجه توقف الجميع ناظرين ناحيته، هناك عدة أعين ظلت تراقبه شذراً ، وبعضها أظهر امتعاضه وغضبه، حاول بعضهم أن يطردوه ، لكن بنظرة خاطفة من الساقية على طرف الحانة ، تراجع الجميع وأنشغل كلاً منهم بما في يده، ارتمي على أول كرسي وجدت أمامه ، ولم يكد يجلس حتى عالجته قبضة قوية أمسكت بتلابيبه ورمت به بعيداً ، جرجر أرجله وجلس في ركن قصي ، أقبلت أحداهن تجاهه تهز جسدها بصورة مثيرة ، كانت ترتدي رداء صغيراً لا يغطي إلا ما بين فخذيها ويترك موخرتها الكبيرة تنفلت كلما خطت خطوة إلي الأمام، كانت معجبة به وذلك ظاهر من حركة عينيها وتغزلها به، ثم حركة يديها الماهرتين على صدره ورجلاه ، جلست على رجليه تحاول أن تثيره وتقبله، أزاحها عن جسده بكل برود ثم طلب منها مشروباً ، شربه على عجالة كدواء مر يشربه طفل صغير مرغم على ذلك، لملم أطراف ثيابه وشدها عليه ، أجال بصره في المكان وكأنما يودعه لأخر مرة، وقبل أن يخرج ويبارح المكان وهو يخطو بخطوات سريعة تجاه الباب تفاجأ الجميع بالشرطة وقوات التدخل السريع تهاجم المكان ، ومن ثم ترغمه على الانبطاح على الأرض وتكبله بقسوة وتقتاده خارج المكان، متجهة إلي مركز شرطة المدينة ، ساد ذهول على الحاضرين في الحانة وهم يتناقلون النظرات فيما بينهم ، بعضهم كان سعيداً لاعتقاله، والبعض الأخر رثى لحاله وما سوف يواجهه من قسوة

تعامل من أفراد الشرطة ، تحركت السيارات تنهب الأرض وصافراتها تدوي في الأرجاء، لم ينقضي زمناً كثير حتى وصلت لمركز شرطة المدينة ، هبط الرجل مكبلاً بالأغلال من يديه يجره رجلان من أفراد الشرطة مع التحري وقائد الشرطة في انتظارهم لدي باب المركز، كان يبدو من ابتسامته الواسعة كمن قبض على صيد ثمين ، ولكن تلاشت تلك الابتسامة وحلها محلها الضيق والحنق حينما لمح تلك السيارات الضخمة السوداء وهي تتوقف بالقرب منه ويترجل منها رجال يرتدون بدلات سوداء ويضعون سماعات على أذانهم ، اتجه نحوه رجل تبدو من ملامحه الصرامة والقسوة، سرعان ما أخرج من جيب سترته بطاقة أبرزها لقائد الشرطة وأمره بتسليم الرجل ، ولم ينتظر الرجال الذين يرافقونه برهة ليستفيق الرجل من دهشته ، فقد أخذوا السجين وركبوا سياراتهم وغادروا على عجل ، ركض التحري ورجال الشرطة ناحية المدير الذي لم يعلق إلا بعبارة واحدة اللعنة على رجال التحقيق الفيدرالي.

في ذلك القصر الراقي المطل على النهر والذي يتكون من عدة طوابق كثيرة ، ومن فوقه مهبط للطائرات الهيلكوبتر ، ومن أمام ساحته الكبيرة توقف عدد من الصحفيين ووسائل الإعلام خلف الخط الحاجز الذي وضع من قبل رجال الأمن لمنع الجميع بقدر يحافظ على سلامة الزائر ، كان المكان محتشداً بالحضور فكل وسائل الإعلام العالمية تقف الآن في الساحة في تغطية مكثفة لكل صغيرة وكبيرة ، والصحفيون يعملون كخلية النحل وأذانهم تلتقط كل صغيرة وكبيرة ، وكل واحد فيهم يحاول أن يكون رقم واحد في الأخبار العاجلة ، تتحدث المذيعة صاحبة الشعر الأشقر المستعار الذي يخفي رأس حليق يشبه المصارعين والوجه الطويل الذي يتسق مع جسدها الفارع وساقاها الطويلتان ، قالت لمشاهديها بأن هناك أنباء غير مؤكدة عن تأجيل هذه الزيارة لدواعي أمنية تهدد حياة الزائر، وبالقرب منها زميل أخر يكذب خبرها أيضاً للمشاهدين فوفقاً لمصادره الخاصة في جهاز الحراسة الخاصة بتلك الشخصية فهو في الطريق الآن وربما يصل في أي لحظة الآن.

من أمام القصر وعلى أطرافه وعلى الأسطح توزعت فرق الحراسة الخاصة تبدو على ملامحهم الجدية والصرامة، وكلٌّ منهم يرتدي بدلة سوداء ويده على السماعة المعلقة على أذنه واليد الثانية على سلاحه في وضع استعداد لكل خطر قادم، رئيس فريق الحراسة يتفقد الجميع ويتابع كاميرات المراقبة التي نصبت في كل مكان، والأقمار الصناعية التي تجوس في المكان كعيني صقر تلتقط كلَّ تحرك في وترصد أي ذبذبات أو إشارات غير متفق عليها في الأرجاء.

في الموكب المهيب والسيارات السوداء المصفحة التي تحيط بها قوات مدربة على أفضل طراز، تتواصل فيما بينها وفق كود سري وقنوات مشفرة، كانت السيارات قد شارفت على الوصول إلى مكان الاحتفال الذي سوف يخاطبه ذلك الرجل الجالس داخل هذه السيارة، جاء من مكان بعيد بعد أن غادر هذا المكان من سنوات خلت معارضاً للسياسات التي تنتهجها دولته وسعيها للسيطرة على كل العالم، تضيق الخناق عليه ومحاولات اغتياله المتعددة من شتى الأجهزة العالمية والاستخباراتية، جعلت منه شخصية شهيرة بتصريح أو كلمة منها تعقد المؤتمرات وتصدر القرارات، لذا كان من الطبيعي أن يكون خط سيره وتنقله محظوراً وغير معلوم للجميع، حتى لأقرب الناس لديه المرأة التي تجلس أمامه الآن ترتب هندامها وتضع عدة مساحيق على وجهها لكي تبدو أصغر سناً من المرة الأخيرة التي ظهرت فيها لدى وسائل الأعلام معه في شريط تسجيلي يحرض فيه على الثورة على النظام القائم في الدولة، كانت ترسل إليه نظرات ودودة وابتسامة ساحرة وهي تخبره بأن كل شيء سوف يمضي على ما يرام وهي تعلم في غرارة نفسها بأنها لن تره بعد اليوم، ولن تكون بصحبته فنسبة نجاته اليوم لا تتعدي الواحد في المائة.

حينما كان الموكب يسير بكل يسر وسكينة ومن أمامه سائقوا الدراجات البخارية ينطلق منها صوت السارينات بصخب وعنف، ليمنع المارة والسيارات من الدخول في مسار الموكب، ومع أول منعطف للموكب واستدارات السيارات ناحية اليمين في

الطريق إلى مكان الاحتفال، انطلقت من العدم شاحنة كبيرة مندفعة تجاه راكبي الدراجات واصطدمت بهم وتركت أجسادهم أشلاء على شارع الإسفلت بعد أن دمرت الدرجات وتركتها قطع متناثرة، ليضغط بقية سائقي السيارات على المكابح ويحاولوا التوقف السريع وتغير الاتجاه تفادياً لهذا الهجوم المباغت ، لكن كانت الردة فعلهم متأخرة فقد نزل عليهم الرصاص كوابل من المطر من كل مكان ، ثم ما لبث أن توالي ضرب بقية السيارات واحدة تلو الأخرى من تلك القوات المهاجمة والمدربة تدريباً عسكرياً دقيق، شل حركة جميع طاقم الحراسة وجعلهم يتساقطون واحداً خلف الآخر، أصاب الهلع جميع من في سيارة الزائر خاصة زوجته والتي أيقنت في تلك اللحظة أنه ميت لا محالة وهي ترتعش وتحاول أن تمسك بيده وتشعره أنها بقربه، حرك السائق عجلة القيادة بسرعة وضغط على عصا التحكم وأنطلق يشق السيارات التي تناثرت على الطريق محاولاً الفرار من هذا الهجوم العنيف.

من أمام القصر المنيف وقف مذيعي الأخبار خلف كاميراتهم يبثون أخباراً من نسج خيالهم عن ذلك الهجوم الشرس الذي تعرض له موكب الزائر وإطلاق شائعات عن مقتله والتمثيل بجثته التي قطعت أجزاء وتساقطت متناثرة لقطع يصعب التقاطها، وعلى الطرف الآخر كان ذلك المذيع المرموق يبث تأكيدات على أن الشخصية الزائرة مازالت بخير ولم تقتل وأن في طريقه إلى مكان الاحتفال، كان واثقاً من نفسه وحديثه وحركات عينيه ووجه تقول أنه كان متيقناً مما يقول، ثم ما لبث أن أخبر المشاهدين بأن طائرة القناة التي تتابع عربة الشخص الزائر تنقل تغطية مباشرة لعملية هروب الزائر وأن قوات دعم كبير هرعت إلى المكان وقامت بتأمين الموقف وأن الموكب الآن في طريقه إلى مكان الاحتفال وسوف يصل بعد بضعة لحظات.

كان يجلس مقيد الرجلين على الكرسي الذي يجلس فيه، ويداه مكبلة إلى منتصف الطاولة التي أمامه في غرفة صغيرة مغلقة، ليس أمامه إلا كرسي آخر ورجل يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً يبدو عليه الغضب الشديد وهو يطرق على المنضدة كل حين،

وهو يحاول جاهداً أن ينتزع اعترافاً من الرجل المكبل أمامه ولكن دون جدوى، خرج بعدها والغضب والشرر يتطاير من عينيه وهو يخبر السجين بأنه سوف يعترف لا محالة، من خلف زجاج النافذة كان قائد الفريق يراقب عن كثب كل ذلك ولا يعجبه أن فريق التحري الخاص به لا يستطيع انتزاع اعتراف بسيط من هذا الحثالة، كان هو في حالة لا يرثي لها قد خارت قواه ويداه ترتعشان وعيونه تبدو في وضع غير طبيعي كمثل المنتشي من مادة مخدرة، كاد أن يسقط من على الكرسي المقيد به، لولا التدريبات السابقة التي تلقاها في القوات الخاصة التي كانت تجعل هذا التعذيب والتحري شيئاً تافهاً مقارنة بالتدريب الذي تلقاه على تلقي الألم والصبر عليه، عقله كان يعمل سريعاً وبحسابات معقدة جداً.

من أمام الغرفة المواجهة لمكان التحقيق دخل ثلاثة رجال يحملون ملامح صارمة وقسماتهم تخبرك عن ماهيتهم، دخلوا بسرعة إلى غرفة القائد وشرعوا يجمعون كل الملفات التي عثروا عليها، ثم خاطب زعيمهم الرجل بلهجة صارمة أمرة بأن مكتبه هو من سيتولى هذا التحقيق الآن، وأن القضية أصبحت تخص الأمن القومي وقد خرجت من دائرة اختصاصهم، ثم التفت إلى أحد مرافقيه الذي كان يحمل شنطة سوداء في يده دلف بها إلى غرفة السجين وفتحها سريعاً، وأخرج منها حقنة طبية كانت معدة مسبقاً والتي ما أن رآها السجين حتى أصابته نوبة من الجنون والصراخ والهياج الشديد ثم أندفع يحاول أن يخلص نفسه من قيده قبل أن يصله ذلك الشخص ويغرز تلك الإبرة في جسده، وقد تم له ذلك الأمر سريعاً نسبة للقوة الجسمانية التي يتمتع بها فقد أنتزع الأغلال وحرر يديه في ظرف من الثانية كان قد ضرب الرجل وأخذ تلك الحقنة وحقنها به في قلبه مباشرة، ثم بطريقة ما فك قيود رجليه بتلك الحقنة أيضاً وأندفع خارجاً من ذلك المبني وهو يضرب بقوة كل من يعترض طريقه.

تغيرت الحال في باحة القصر وأسرع جميع طاقة الحراسة في الثبات في مواقعهم والتأكد من سلامة الأمر قبل وصول ذلك الزائر خاصة بعد الأوامر الصارمة التي

تلقوها من القيادة بضرورة الانتباه جيداً، خاصة بعدما فشلت محاولة اغتيال تلك الشخصية في الطريق إلى المكان، وكذلك تحفز جميع الصحفيين ومراسلي الأخبار وهم يسمعون من بعيد صافرات الإنذار تدوي وهي متجهة ناحية المكان، وكانت تلك إشارة على أن ذلك الزائر مازال يتمتع بالحياة وهو في طريقه لإلقاء كلمته أمام ذلك الحشد ومن ثم لقاء سفير تلك الدولة التي قضى عمره كله معارضاً لها، سرعان ما دخلت السيارات المصاحبة لوفده وأتخذ طاقم الحراسة وضع يمكنهم من السيطرة على الوضع والمحافظة على سلامة تلك الشخصية المهمة، بعضهم وقف يمنع الصحفيين والقنوات الإخبارية من التقدم أكثر من المكان المخصص لهم، والبعض الآخر يتلفت يمنة ويسرة يلتقطون أي شيء غريب ومثير للشبهات، وقفت سيارة الزائر وترجل منها طاقم الحراسة الداخلي حيث فتحت الأبواب على عجالة وأحاط به الحراس إحاطة السوار على المعصم، وبعدما أنزلتهم العربة انطلقت مبتعدة وتقدم الرجل وهو في وسط الحراسة حتى وصل بسلاسة وسلام وأعين قائد عمليات الأمن تراقب كل خطوة يخطوها، والرجال الموزعين في كل مكان وبين الحاضرين من القنوات الفضائية تراقب بتوجس وخيفة أن يحاول أحدهم اغتياله مرة أخرى.

صعد هو على المنصة المعدة لخطابه تعلو وجهه ابتسامة قوية ظافرة وهو يلوح بيده للحضور وللعالم من خلف الشاشات، كانت هي تقف بالقرب منه وقبلها ينبض بقوة وأطرافها ترتجف وعيونها زائغة ذاهلة تضغط على كفيها بعنف، تتلفت بحركات حذرة يمنة ويسرى ثم ركزت نظرها تجاه بقعة أمامها هناك في الأفق البعيد، تحدث هو بكل ثقة وعنفوان وأبان للحاضرين ولجميع مؤيديه بأن هذه المحاولات لن تثنيه عن ما يفعل وأنه سوف يكشف خداع هذه الحكومة للشعب وأنها تتجار بدماء أبنائهم وتزج بهم في أتون حرب خاسرة، وأنهم يطرحون قوانينهم للبرلمان لإجازتها وحينما لا يفعل لا يتورعون عن تنفيذها خفية، ويضعون ميزانيات ضخمة لذلك ودلل على حديثه بالمشروع أكس الذي صدر فيه تشريع معلوم للجميع يناهضه ويقر بضرورة إيقافه

ولكن هذه الحكومة مازالت ماضية فيه وتدفع تجاهه ميزانيات ضخمة وأنه يحمل أدلة قوية تدين هذه الحكومة، وقبل أن يكمل كلامه ويضيف شيئاً آخر تقدمت هي من خلفه وأصبحت قريبة منه، ثم أمسكت بيده تشد عليها بقوة، التفت عليها وابتسم ثم أخبر الجميع بأن محاولات اغتياله كل مرة لن توقفه ولن يتوقف حتى يصبح جثة هامدة ومع كلمته الأخيرة هذه وانطلقت صيحات مؤيديه على الجانب الآخر الذين رد عليهم برفع يده محيياً لهم ثم التفت تجاه الحاضرين من الصحفيين والقنوات الفضائية محاولاً قول شيء فمالت زوجته قليلاً وكأنها تصلح من شعرها، إلا أن رصاصة انطلقت من نقطة بعيدة واخترقت الأجواء من العدم تغالب الريح وكل العوامل الجغرافية تدلل على أن من أطلقها ماهر جداً في عمله، لتضربه وتخترق مقدمة رأسه وتخرج من خلاله لتصيب أيضاً طاقم الحراسة الذي من خلفه، تعالت الصيحات وسقطت زوجته بقربه تبكي بجذع وساد الهرج والمرج بين الحاضرين، ثم كانت القنوات الفضائية تضع عنواناً عاجلاً لأخبارها وتعيد مراراً وتكراراً حادثة الاغتيال تلك، وتبارى المحللين في كل مكان يضعون أرآهم وتحليلاتهم العميقة والسمجة عن الأمر.

الغرفة رقم A16

عمر علي الجقومي

***

أودُّ لو يسمح لنا الناجون أن نمارس غرقنا بسلام، دون تذكيرنا في كل مرة أنهم قد نجوا، وأننا نغرق.

– لينا السماني.

***

-١-

شارع الحرية هادئ لأول مرة منذ عُقود، بدا لي المكان مفزعًا، رغم أنني ألفته لسنوات.

جلست عند حاجة حليمة وطلبت شاي بالنعناع أتأمل هذا الوجه المخيف للمدينة.. كان هذا بُعيد انقلاب عسكري غيّر وجه البلاد الآن وربما للأبد. حاجة حليمة تعرفني منذ سنوات وأعرفها، امرأة صبورة، ملامحها جامدة لكنها تحب الناس وتحبني أنا أكثر! بينما أودُّ سؤالها.. باغتتني بسؤال مفاجئ:

- جابك شنو يا آثار الليلة والبلد مقلوبة؟!

اِبتسمتُ وقد أخذني سؤالها المشبع بالحب، إلىٰ الإجابة عليه سريعًا:

- ما خلاص انقلاب واِنتهىٰ!

سكتت؛ ورأيتها تكتم شيئًا عظيمًا وهي تهزُّ رأسها وتتجاهلني، لأول مرة يحدث هذا! وبإجابتي بدوت كما لو أنني قد حطمت حلمها الأخير.

المدينة شيء باهت ومخيف والناس هُنا يتجولون بحذر بالغ.

معظم أصحاب المحلات لم يأتوا بعد، وقد لا يأتون اليوم وغدًا وبعد غد؛ ثمة فريشة يبسطون مباعهم علىٰ حافة الطريق، ينادون الناس ويتوسلونهم بنظرات لحوحة لكي يأتوا.

في نهاية الشارع شاهدت تجمعًا لشباب يصفقون ويهتفون، هذا المنظر ألفته كثيرًا في الجامعة، يمضون نحونا، أو بالأحرىٰ يمرون بشارع الحرية، يزيدون كلمّا اقتربوا، يهتفون.. لا لتقويض الدستور، لا لاحتلال السلطة، عاش الوطن حرًا أبيًا.

-٢-

الآن سأحكي لكِ ما حدث عندما رأيتكِ تجلسين عند حاجة حليمة.

تحركنا بعد أن أشارت لنا الإِستخبارات بأن مُظاهرة منددة للانقلاب تتحرك في شارع الحرية وأعدادها في تزايد، كنت مسؤولًا عن المتحرك وصدرت لنا أوامر باعتقال بارزين يتصدرون المظاهرة تم رصدهم، وتفريق المتظاهرين بعبوات الغاز المسيل للدموع، وقد كان.

قبل أن تتفرق أعداد المتظاهرين بالكامل وقد اِعتقلنا بعضهم، رأيتكِ تجلسين بهدوء عند حاجة حليمة تنظرينا بعين قلقة لا تكاد تثبتُ علىٰ حال، رأيتك هُنا عشرات المرات، تحتسين قهوتك، تشربين الشاي، تضحكين مع صديقاتك، تتحدثين عبر الهاتف، تودعين حاجة حليمة، أشياء كثيرة رأيتك تفعلينها هُناك، أنتِ لا تُحبين السياسة ولا تعرفين عنها شيئًا، لكنني أغرمت بكِ من أول نظرة، أحببتك لأنك جميلة، لا أعرف عنكِ غير ذلك، ما وجدت طريقة لقول شيء ما معك؛ وأنت لم تلحظي وجودي هناك، من أجلك.

وعندما رأيتك تنظرين إلينا، وجدت نفسي أصدر أمرًا باِعتقالكِ، لستِ من القائمة ولكنني أريدكِ.. ألمتني توسلاتكِ للنجاة، وأفجعتني صرختكِ؛ ولكنهم فعلوا ذلك علىٰ أي حال!

لا أعرف كيف أصف المنظر عندما رأيت المتظاهرين يتغنون بالحرية والسلام والعدالة، مقابل ما أمطرتهم القوات الأمنية بالغاز المسيل للدموع، والقنابل الصوتية بكثافة شديدة.. إن أعظم هزيمة تلحق بالإنسان أن يتم قهره، وأن يكون ذلك أمام الجميع. كانت جموع المتظاهرين تتزايد وتتناقص حسبما نشاهد، وبينما يجري هذا المد المتواصل، تحول الشارع لسحابة ضخمة من البمبان، اِختنق الناس وتساقطوا وهربوا، اِمتلأ المكان بالعويل والصراخ والسباب، وبعض الهتاف؛ نساء وأطفال وصبية مرميون علىٰ الطريق يختنقون، يعيشون لحظات أليمة، ولا زالت القوات تمطرهم بالغاز المسيل للدموع، كأنما لا رحمة في قلوبهم؛ وكأن هؤلاء ليسوا بشرا.

اِستمر الضرب والسب والشتم والتعنيف علىٰ المتظاهرين لدقائق قبل أن يتحول كل هذا الغبن لحملة اِعتقالات، حدث هذا قريبًا منّا.

حاولتُ أن أجد طريقة للهروب، لكن الشارع تحول لثكنة عسكرية، فسارعت نحو حاجة حليمة وجلست قربها في الوقت الذي صوبوا نظراتهم نحوي كحداء جارحة كُنت أنا أتودّدهم الرحمة، لكنهم ظلّوا يتلذذون بفعلي هذا ويغويهم أكثر. رموني في صندوق السيارة، تلاحقهم نداءات حاجة حليمة، وجدت نفسي وسط مجموعة من المتظاهرين.

اِستمر ضربنا وشتمنا وتهديدنا بالاغتصاب، وكنت أقول لهم أنني لست مُتظاهرة ولا أعرف شيئًا عن السياسة؛ لكنهم يستمرون في تهديدهم ووعيدهم؛ دون أدنىٰ اِعتبار لتوسلاتي.

تذكرت حاجة حليمة وهي تكتم غيظًا كبيرًا بداخلها، فهي تعرف طبيعة ما يجري وسيجري، كانت تعلم ماذا يعني الاِستيلاء علىٰ السلطة بقوة السلاح!

وصلنا مكانًا غريبًا، كل شيء كان غريبا منذ أن تمّ اِعتقالنا، وضعوني في غرفة منفردة، لا أعلم ماذا جرىٰ للبقية. دفعني أحدهم في الغرفة وقبل أن يغلق الباب قال:

- انتظري لحد ما يجي مغتصبك!

صرخت، بكيت بهستيريا، ضربت الباب بشكل متتالٍ، دون أي شعور بذلك، جريت في الغرفة الضيقة، كانت ضيقة ودائرية الشكل، محيطها مرتفع، به منفذ صغير، عرفته من خلال الضوء المنعكس منه في الاِتجاه الآخر.

كنت أعلم أن ما قاله هو اِستمرار للتعذيب النفسي، رغم أن أصدقائي كانوا يتحدثون عن حدوث حالات اِغتصاب فعلًا، لكن لا أحد يعرف إن كان ذلك قد حدث فعلًا أم لا! وعلىٰ أي حال من خلال ما رأيته قبل ساعتين؛ يمكن لأي شيء أن يحدث بسبب، وغيره.

- ٤ -

أخبرني أحد أفرادنا أنه قام بتنفيذ التعليمات وأنكِ بالغرفة A16، أفضل غرف الجناح، وكُنا قد أفرجنا عن المعتقلين بعد ساعتين، خشية أن تصل الأخبار لوكالات الأنباء فتستخدم ذريعة ضد الانقلاب. وعندما تحركت نحوك.. كنت مترددًا بشأن ما أفعل! لقد اِنتظرت عشرات الأيام كي أقترب منك، لرؤيتك عن قرب، للمس خديك الأملسين والنظر في عينيك البُنيتين، وتأمل وجهك بنضاره وبهاءه المهيب، أقصىٰ الأمنيات والحلم الأخير، وجهك كُله بأشياءه المثيرة، حينها ستبدأ الحياة من جديد، تبدأ بالوجه الذي يطل علىٰ العالم الآخر. طالما بدّدت الساعات في اِقتناص الفرص لرؤيته دون أن يعكر ذلك مزاجك، هٰأنا أقترب منكِ، أمشي نحوكِ بقدمين مثقلتين، وقلب مشفق، وروح مختلجة بمخاوف اللقاء.

فتحتُ الباب! اِعترتني قشعريرة مخيفة حينما شخصت عينيكِ، وصرخت فزعة، أغلقتُ الباب خلفي وتسمّرت أنظرك.

لا يمكن لهذا الطهر النقي أن يذوب في دقائق، بينما لا يمكن كبح هذا الرغبة الجامحة!

تأملت صمتكِ، وضعفكِ، ودموعكِ المنهمرة بغزارة، تأملت خديكِ وقد توردا، شفتيكِ وهما يرتجفان، جسدكِ كله يرتجف، مثلي أنا مرتبك رغم ما أُبدي من قوة، أودُّ أن أخبرك أنني كنت أنهار من الداخل. تذكرت الله، وأختي، وأمي، تذكرت نقاءك وبهاءك، لكنني ضعيف أمامك. مثلك تمامًا، ضعيفة أمامي.

اقتربتُ أكثر، واِلتصقتِ أنتِ بالجدار أكثر كقطة مذعورة.

-٥-

فُتح الباب.. فصرخت. ولا أعرف ماذا فعلت آنذاك! أغلق الباب خلفه وتسمّر ينظرني، كان قويًا في وقفته، يتطاير الشرر من عينيه، يتأمّلني كمن يتأهب للهجوم. حينها تأكدت من أنهم يفعلون ما يقولون، لكنه أخذ يفقد هيبته وهو يتصيدني؛ وعزيت ذلك لكوني فريسة سهلة، لا متعة في صيدها. الصيد السهل لا متعة فيه، إذ كلّما كانت الفريسة تقاوم، كان الصياد يجد متعة في كبح هذه المقاومة. اِلتصقتُ أكثر بالجدار، فسرت فيه الرغبة مجددًا، اِقترب مني؛ وحينها فقدت معنىٰ القوة.

سألني في توتر بادٍ:

- ما اسمكِ؟

- آثار.. آثار الطيب.

- كم عمركِ؟

- واحد وعشرون.

- هل أنتِ خائفة مني؟!

كان يبتسم بمكر، وهو يحاول تطويعي.

بدا لي التحقيق هادئًا، وهو يستخلص مني معلومات طبيعية، لم يسألني عن التظاهرة، ولا عن لوني السياسي!

في هذه اللحظة بالتحديد اِنتبهت وركزت في وجهه، بدا لي هذا الوجه مألوفًا، ليس غريبًا عني، حاولت اِستعادة ذاكرتي، ولكنني فشلت في تكوين صورة مناسبة له.

اِقترب مني الرجل وقال بخبث:

- أحبكِ.. أحبكِ يا آثار.

اِضطربت مشاعري وفهمت أن ذلك مدخل لحكاية مؤلمة قادمة؛ والمؤلم أنها في كل لحظة كانت تقترب.

مرّ وقت وأنا أصرخ وأطلب منه ألّا يلمسني، وأن يخلي سبيلي؛ ولكنه ظل يقاوم كل هذا بعنف، أنا أشعر أنه وبمجرد وجودي في مكان لا أحبه هو نوع من العنف يجب إيقافه وعلىٰ عجل.

لا أعرف ماذا جرىٰ بالتحديد، لكن هو ما حدث لكثيرين وسيحدث لكثيرين أيضًا.

-٦-

خرجتُ من الغرفة مذهولًا، ولا زلت نادمًا علىٰ اِعتقالكِ! أعرف أنها حالة من الجبن اِعترتني، وقد تسبب جمالكِ في ذلك، أردت إخباركِ بالحقيقة، وهي أنني أحبكِ، وعلىٰ نحو جاد يا آثار.

كنتِ مُثيرة بجسدك البض الساحر، بعنفوانك وهو ينتشر في المكان بغنج، يلهب جميع من فيه. أفرجنا عنك، وخشيت أن يلحق بك أحدهم أو أن يُلحق بك ضررًا بالغ وأنت تعودين لأهلك، وفي نفس الوقت كنت أود معرفة أين تسكنين بالتحديد.

قمت بإِيصالك، وقد كنت تقاومين ذلك؛ لكنك قبلتِ أخيرًا.

-٧-

لقد تغيرت حياتي تمامًا منذ ذلك اليوم، وبدأتُ أعيش حياة جديدة، مليئة بالعنف والغبن؛ لكنني وجدت نفسي رهينة لما حدث في الغرفة A16، أتذكر وجه جمال، قال لي أن اسمه جمال، في كل لحظة، يطاردني في نومي وواقعي، ترددت كثيرًا في شرح ما حدث للآخرين، حتىٰ لأهلي، لفضح ما يحدث داخل تلك الغرف الدائرية، ذات الحوائط العالية، بالتحديد.. الغرفة A16، لكنني آثرت الصمت والموت تحت ستاره!

تبدو الحياة طبيعية هُنا، يوم غائم مشوب برياح هادئة، وقد اعتدتُ أن أتعايش مع وضعي الجديد.

ناداني أبي، وطلب مني رأيي في الزواج؛ لأن أحدهم تقدم لخطبتي، وعندما طلبت رؤيته ومعرفته قدّم لي جمال، جمال نفسه الرجل الذي عرفته في الغرفة A16.

وافقت!

في تقدير أبي أنه رجل يتبع لمؤسسة وطنية، يخاف علىٰ الوطن؛ بأرضه وعرضه. هُنا يحظىٰ هؤلاء بمكانة رفيعة في المجتمع، قبل أبي بذلك؛ بينما قبلت أنا لأنه جمال، الرجل الذي عرفته في أسوأ الأماكن!

-٨-

إنني أحكي لكِ يا آثار، حقيقة ما جرىٰ حينها، منذ ذلك اليوم وأنا مهووس بكِ، لا يمكن لك أن تعيشي حياتك الأخرىٰ دون معنىٰ، يتم تدريبنا علىٰ ذلك، أن نجعل من يأتون لتلك الغرف يعيشون في هاجس مستمر وروح قلقة، ومستقبل غامض. شعرت بك ستكونين فارغة من المعنىٰ، لذلك تزوجتك. الآن نحن أقرب لبعضنا أكثر من أي وقت مضىٰ، وأنجبنا طفلة. أشعر معك في كل لحظة؛ بأن الحب يبدأ من جديد.

لقد تركت وسائل التعذيب والتعنيف ضد المتظاهرين، بعد حادثة الغرفة A16، معك أنت بالتحديد.. فقد جرىٰ قبل ذلك الكثير!

أشعر أنكِ أنقذتني علىٰ نحو جيد؛ ولكنني أودُّ أن أعتذر لك عمّا حدث في ذلك اليوم، أو بالأحرىٰ الطريقة التي اِلتقينا بها!

-٩-

تزوجنا وعشنا حياتنا بشكل طبيعي، علىٰ الرغم من أن العديد من الفرص أتيحت لي للاِنتقام من جمال؛ لكنني أحببته، شعرت بلطف الحياة معه، تمنيت أن يواصل عمله علىٰ نحو ما كان، أعرف أنني تأثرت به. ولكنني أرغب في أن يستمر في عمله.

شارع الحرية صاخبًا، ذهبت لرؤية حاجة حليمة، فلم أجدها، وعندما سألت عنها، أخبروني بأن القوات الأمنية اِعتقلتها منذ شهور بدعوىٰ جمع ناشطين محسوبين لمعارضة النظام في مكانها.

ما زال الانقلاب قائمًا وما زال المتظاهرين يخرجون في الشوارع طلبًا للحرية والسلام والعدالة، المشهد نفسه يتكرر..

فقط الحاجة حليمة لم تعد هنا! بل تصنع دورًا جديدًا فيه، من خلال سجون النظام.

طيــــــف الريـــــــتا

مــــــرمــــــر محمد

"تك توك تك توك الساعة تدق، تك توك تك توك حل الغسق، تك توك آن أوان الانتقام، تك توك الريتا قادمة"

ما زالت هذه الكلمات تُسمع من المستودعِ، ولكن لم يجرأ أحد من الاقتراب خوفًا من غضب الريتا، ولكن آل بهم الحال إلى هنا، ومن هي ريتا؟

قبل ستة أشهر في قرية النعمان.. انتفضت شمس الصباح مشرقة؛ لتعلن انتصارها على حلكة الليل، التي أطالت مكوثها هي الأخرى، وانتفض الديك بريشه ذي اللون الأحمر؛ ليعلن بصياحه بداية يوم جديد، غَرَّد بلبل الكروان بين أربعة قضبان، في أحد بيوت تلك القرية لحنًا عذبًا وسعيدًا، سار كُل فلاح إلى حقله، وكل عامل إلى عمله.

صوتٌ ذكوري جهور قادم من بيت البلبل ذاته:

- ريتا، أسرعي بابا، أنا في عجلة من أمري، تعلمين بأمر محكمتي اليوم.

- ها أنا ذا يا أبي! آسفة لتأخري، فأنت تعلم بعيد ميلاد "لنا" صديقتي، لذا لابد أن أكون في أبهى حُلة.

- أنت دائما حلوة يا صغيرتي.

- أرجوك يا أبي ما عدتُ صغيرة، فلقد بلغت من العمر السادسة عشرة، أخبريه يا سيدتي الجميلة.

وتتجه ناحية والدتها لتقبل رأسها.

تجيبه صوت أنثوي فاتن:

- أحمد، لا تتعمد إزعاج حبيبتي الريتا!

هذا هو المحامي أحمد عادل، وأسرته الصغيرة، المكونة من زوجته مها وابنتهما الوحيدة "رؤى" وتُلقَّب بالريتا -والذي يعني اللؤلؤة الثمينة والغالية- ولدتْ ريتا في "مدينة السلطان" التي لا تبعد كثيرًا عن قرية النعمان، كبرت وترعرعت فيها وقد كانتْ فتاة

فاتنة الجمال، متوسطة الطول، قمحية اللون، تمتلك شامة على وجهها، تعلو شفتها من الجهة اليمنى. منزل المحامي في المدينة عبارة عن قصر فاخر، يتمنى الجميع الولوج إليه، وغرفة الريتا وكأنها جناح في فندق خمسة نجوم، تُجيد أميرة أبيها المدللة العزف على الكمنجة، وقد كانت تعزف كل ليلة هي وبلبلها والتي أطلقت عليه اسم "ريتو" ألحان سعيدة، أما في القرية فتعيش في بيت جدتها، والذي ورثته أمها عن والدتها حديثًا، وقد كان كل صيف بمثابة النعيم للريتا، كيف لا وقد اعتاد المحامي أحمد أنَّ يأتي هو وأسرته الصغيرة إلى تلك القريةِ، بعيدًا عن ضوضاءِ المدينة، صخبها ولوثها بيد أنه يعود إليها كُل يوم أربعاء لقضاياه المهمة، واليوم أربعاء الثالث من مايو لديه آخر جلسة له في قضية مهمة جدًا، والتي أقسم مسبقًا على أن ينتصر فيها. أما عن ابنته فقد كانت تود الذهاب لعيد ميلاد صديقتها العزيزة التي تقطن بالمدينة، ربما تعود مع والدها وربما لا؛ فقد كبرتُ الريتا تحت غنج ودلال والديها حيثُ أنهما لم يحرماها من أيَّة شيء، وكانا يلبيان كُل طلباتها إلا أن حادثة مؤلمة تسببت باختفائها فجأة؛ حيث تبدأ تفاصيل القصة منذ أربعاء ذلك اليوم الذي ربح فيه المحامي أحمد قضيته على السيد عدلي؛ وهو أحد الرجال ذوي النفوذ والسلطة، بتهمة رُفعت عن سابق الرصد والقصد، بأنه وأعوانه يتاجرون بالممنوعات، بالرغم من سلطته ونفوذه الكبير، استطاع المحامي بحنكته وذكائه الفوز عليه. الآن من سيجعل نار الحقد التي في دهاليز عدلي تخمد؛ فقد قرر الانتقام من أحمد وبطريقته الخاصة، بينما هو في زنزانته الضيقة تلك، أمر بإرسال اثنين أو أكثر من رجاله لخطف الأميرة المدللة، بعد مراقبة تحركاتها جيدًا، حتى لا تُثير الشبهات، وأن يختاروا يومًا يتأخر فيه والدها عنها ولو لبضع دقائق. مرَّ شهر كامل وهم يراقبونها في تلك القرية إلا أنها لم تكن تخرج من البيت لوحدها، إلى أن انتهت إجازة الصيف، وقد مل رجال عدلي مراقبتها، وقد آن أوان عودة الريتا إلى المدينة وإلى مدرستها كذلك.

في مساء اليوم الذي يسبق الليلة المشؤومة تستيقظ الريتا فزعة من نومها صارخة وطالبة النجدة، يهرول إليها والداها على وجل ناحية غرفتها، ليعرفا ما قد حل بصغيرتهما، فتخبرهما بأنها قد رأت كابوس مخيف وبأنها بلا عينين أو أن عينيها مثقوبتان، ترتجف ثم تبكي، تحتضنها والدتها سريعًا وتهدئ من روعها، وتطلب منها أن لا تذهب إلى المدرسة في اليوم التالي لانقباض قلبها وخوفها عليها إلا أن الريتا ترفض البقاء في المنزل، لاهتمامها المفرط بدروسها.

في ظهيرة اليوم التالي بينما كانت تنتظر والدها لتعود معه إلى المنزل، تتم وتنجح عملية خطفها، كانت الريتا تقاوم لأجل الهرب بيد أنها لم تفلح من أن تنفك من قبضتهم.

أخذها خاطفوها إلى الطريق مهجور وبعيدًا عن المدينة، إلى أن استقروا في مستودع المخلفات، بعدها اتصلوا بسيدهم عدلي، والذي قال لها ساخرًا:

-تك توك تك توك وحتى الأمس كان والدكِ يظن بأنه فائز، اليوم فقط سيعلم حقًّا أنه خسر لعبته الصغيرة والوحيدة.

ثم أردف رده قائلًا لرجاله:

-تك توك تك توك اضرموا النار في جسدها.

أمر قبل ذلك مساعده ويده اليمين "رضوان" أن يقتلع عينيها أولًا، حتى لا تشهد مأساته ونهايتها البائسة تلك، وليبحث والدها عن كنزه المفقود.

نفذَّ رضوان ما طلبه معلمه، ولم يهتمْ لصرخاتها، وأنَّاتها، ثم خرج وطلب من بقية الرجال حرقها، إلا أن أولئك الحقراء لم يصغوا إليه، بل انصاعوا لرغباتهم وتلذذوا بجسد الصغيرة أولًا، اغتصبوها، ثم تركوها تئن والدماء تقطر من عينيها، واحرقوا فيها المكان برمته.

خيَّم الليل وانتشرتْ ظلمته سريعًا، و الريتا لم تعد بعد، غرد البلبل لحن الفقد على مالكته، يخالطه نحيب والدتها مع تضرع ودعاء والديها، واللذين يظنان أن ابنتهما مفقودة، ولم يعلما حتى لحظتهما تلك بأمر رحيلها الأبدي.

في صباح اليوم الثاني أعلنتْ الأخبار عن وجود حريق في مستودع المخلفات الموجود عبر الطريق الذي يربط بين مدينة السلطان وقرية النعمان، وليست هناك خسائر كبيرة، عدا عثورهم على جثة متفحمة، قد كانت ترتدي زيًّا مدرسيًا، ويبدو أنها لفتاة.
وضعتْ أمها يديها في قلبها، والذي ازدادت ضرباته حدَّة، ثم صرخت:
- هذه الريتا، ماتت يا أحمد.
- اهدئي أرجوك، أنا واثق تماما من أنها بخير وستكون كذلك أيضًا، لا تزيد من وسواسكِ ومخاوفكِ.
- اذهب إليها أرجوك إنها هي، ابنتي صدقني.
ولجتْ بعدها مها في غيبوبة لم تستيقظ منها، خاصةً حينما أثبت الفحوصات أن تلك الجثة هي ابنتها، أما عن المحامي أحمد فقد كاد أن يفقد عقله، إلا أنه أقسم أن يسترد حقَّ ابنته، خاصة عندما علم بأمر اغتصابها، فظَّل يبحث عن أيَّة أدلة، يثبت بها أن عدلي هو السبب في مقتلها، ولكن لا شيء عليه، فهو ما زال في السجن.
الآن وبعد مرور أشهر على موت الريتا، ظهرت إشاعات عن سماع أصوات صرخات، وأنَّات في مكان المستودع، وأصوات إضرام حريق، نداءات وضحكات، أصوات تهدد بالانتقام.
"تك توك تك توك الساعة تدق، تك توك تك توك حل الغسق، تك توك وآن أوان الانتقام، تك توك الريتا قادمة" تناهت هذه الكلمات إلى أذن رضوان، الذي كان يصارع النوم، ولكنه لمْ يهنأ به مذ أن شارك في قتلِ ريتا، وعيناه لم تذقْ طعمه قط، أغمضهم لبرهةً، حتى استيقظ صارخًا:
- النار، النار لا أرجوكِ.
استيقظتْ زوجته على صوت صرخاته تلك، ثم استرسلت قائلة له:
- بسم الله، ألم أطلب منك أن تذهب لرؤية الطبيب؟! مرَّ شهر وأنت على هذه الحالة يا رجل!

- سأذهب غدًا بإذن الله، عودي للنوم.

- يا لك من عنيد حقًّا، في كل مرة تجيبني بهذه الكلمات الضئيلة، وتستيقظ صارخًا كل ليلة، بئسًا!

بينما هو نائما، سمع صوت صرخات الريتا لحظة اقتلاعه لعينيها، ثم ظهر شبحها بشعر طويل يغطي وجهها، وروح خاوية تظهر بلا عينين، تحدثت إليه وهي تبكي:

-"لِمَ قتلتي؟ أخبرني لِمَ دمرت أحلام الريتا؟!"

- أنا لم أقتلكِ، لقد أمرت بذلك، ونفذت الأوامر لا غير.

-"لا بل قتلتني، قتلتْ طفولتي، اليوم سأنتقم منك شر انتقام"

استيقظ رضوان وزوجته على صوت صرخات إحدى ابنتيهما، فركضا ناحية غرفتهما، وجد رضوان ابنته الصغيرة "رضوى" في الأرض وأنوار الغرفة مُضاءة تلعب بدميتها لا تأبه لصرخات أختها، و "ريما" التي صرخت جالسة فوق السرير ترتجف من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، ركضتْ زوجته ناحية رضوى، أما هو توجَّه تلقائيًا ناحية الأخرى، بيد أنها صرخت مجددًا قائلةً هذه المرة:

- أمي لا، لا تذهبي ناحيتها إنها ليست رضوى، هذه فتاة شريرة.

- عمَّا تتحدثين يا ابنتي هذه أختكِ؟

انتفض شعر الصغيرة لأعلى، ثم ارتفع جسدها كذلك، وقالت بصوت الريتا المتألم:

-"إنها تقول الحقيقة، أنا لستُ ابنتكما، أتيتُ للانتقام".

صرخت الأم:

- من أنتِ؟ دعي ابنتي وشأنها، ماذا تريدين؟

ابتسمت الريتا ثم ضحكت:

-"نبرة الصوت الممتلئة بالخوف، الطريقة في الصراخِ كلها تذكرني بشيء ما! ما هو يا ريتا؟! ما هو؟! آه تذكرت الريتا عندما قتلتها زوجكِ"

- ماذا؟!

باستنكار تام نظرتْ زوجة رضوان إليه، ثم أعادت النظر للأعلى:
- لا أدري عمَّا تتحدثين، ولكن يبدو أنكِ تقولين الحق، وهو يعاقب الآن على فعلته تلك، دعي ابنتي أرجوكِ وانتقمي مني بدلًا عنها وعنه، هي لم تعرف للحياة شيء، لم أكن أعرف أنه قاتل ولكني يمكنكِ قتلي، دعي ابنتي أرجوك.
-"وهل كانت الريتا تعرف؟ سأنتقم من أربعتكم، هو قتل أحلامي قبل أن يقتلني، دمرني، إن لمْ يذهب للاعتراف عن جريمته غدًا، ويزج في السجن، فلن تعيشوا بهناء، وسأقتل ابنتكما الأخرى، أما عن هذه فقد أضحتْ جسدًا بلا روح"
غادرت الريتا جسد الطفلة "رضوى"ذات الثلاثة أعوام والتي سقطت جثة على الأرض، بلا عينين فقد قلعتهما، ثم تبعتها بضحكات قائلةً:
"غدًا موعدنا يا قاتل، غدًا موعدنا يا رضوان، لن تهنأ، لن تنجو من غضب الريتا"
في صباح اليوم التالي ركض رضوان لاهثًا ناحية قسم الشرطة ليُسلم عن نفسه، علَّه ينقذ ابنته ريما وزوجته بعد فقدانه لرضوى؛ بعدما أثبتت الأدلة الشرعية على أن موتها كان طبيعيًا، لم تظهر أيَّة آثار لجريمةِ قتل ما، وأتهم رضوان بالجنون لا غير، ولم تقبل الشرطة أن تدخله السجن لذلك السبب، علم في ما بعد أن جميع من شارك في قتل الريتا قد قُتل بطريقةِ غريبة، وفيهم من تشَّوه، ومن خُنق، وخاصةً السيد عدلي، فقد عُثر عليه مُتفحمًا في أحد الزنزانات الانفرادية، بعدما عانى من شبح الفتاة الذي يطارده، فظنوا أنه جنَّ، أو يدعي الجنون، ففُصِل عن باقي المساجين.
أما عن رضوان فقد عاد إلى المنزِل يجر وراءه خيبة، يملؤه الندم على ما أقدم عليه، ينتظر حتفه على يدها. طرق باب المنزل فلم يفتح له أحد الباب، ازدادت نبضاته عن المعتاد عليها، وظنَّ بأن شبح الفتاة حتمًا قد قتل ريما وأمها، فنادى على أحد الجيران وأخبره بأنه قد نسي اليوم مفاتيحه في المنزل ويحتاج لمساعدته في كسر الباب، وعندما حاول مساعدته في ذلك، فُتِح الباب لوحده، لَمْ يأبه لهذا فراح يركض في أرجاء المنزل باحثًا عن زوجته وابنته، وجد رسالة على سرير غرفته، كُتب عليها:

"اعذرني يا رضوان، بعد فقداني لرضوى، ومعرفتي بأمر جريمتكَ البشعة تلك، لا يمكنني حقًّا البقاء معكَ، لا يمكنني خسارة ريما كذلك، أنت مجرد قاتل نجس"

لم يدرِ هل يبتسم أم يحزن؟

فَرِح لأنهم بخير، وشَّد الحزن عليه إذ أن حقيقته قد انقشعت، وأصبحت زوجته تكرهه، وبينما هو في حاله هذا سَمِع صوت ضحكات الريتا تملأ أرجاء الغرفة:

-"احزن يا هذا ولا تفرح كثيرًا، بسببكَ اليوم فارقت أمي الحياة، أبي في حالة يرثى لها، صار كالمجنونِ لا يعرف من حوله، اخبرني هل تظن بأن عائلتكَ تستحق أن تنجو من غضبِ الريتا؟"

-ماذا فعلتِ بهم، أرجوكِ لا تأذيهم، لا ذنب لهم؟

لمْ تجبه الريتا وظلتْ فقط تضحكَ، وتقهقه، فصار رضوان أشبه بالمجنون يركض هنا وهناك باحثًا عن هاتفه، ليتصل بزوجته، لم تجب على اتصاله في المرة الأولى، حاول الثانية والثالثة، حتى أتاه صوت زوجته من الطرف الآخر:

-ماذا تريد منَّا، ألم تقرأ الرسالة؟

- أ أنتم بخير؟

-لا تتصل بنا مجددًا يا راضون، أرجوكَ دعنا نعش ما تبقى من عمرنا بسلام.

أغلقت زوجته خط الهاتف في وجهه، جلس ثم اتكأ على كرسيه، وأخذ شهيق، أردفه بزفير عميق، وبدأ يتعذر للريتا وأنه نادمًا على فعلته، ويعلم بأنه لن يعيدها إلى الحياة، ولن يعيد إليها ما خسرته، إلا أنه يستحق العقاب، ثم أخبرها أنه لن يكرر ما فعله مجددًا، وترجاها بأن لا تمس عائلته بسوءٍ، وإن أرادت الانتقام فعليها أن تنتقم منه.

في مساءِ اليوم ذاته وُجد رضوان مشنوقًا على باب بيته، ولا تظهر أيَّة آثار على أنه قد أقدم على الانتحارِ، وقد أغلقُتْ القضية على أنها انتحار فلا أدلة ولا براهين ولا أعداء له، عدا طيف الريتا.

أنا والآخرى !

نجاة إدريس إسماعيل

عندما حمل زوجي خرطوش المياه وخرج به إلى حيث سبيل المياه بالخارج، كرهت ذلك الخرطوش وددت لو قطعته إربا إربا، أفي هذه (الزيفة) العاصفة يحمل خرطوشه ويمضي إلى سبيلها، ضغطت على أسناني وأنا أقول (سبيل الحبيبة)، فتحت الشباك لأستشف تدفق المطر.. كان لا يزال مندفعا بشدة والرياح تدفع بالأمطار الغزيرة، رأيته يحاول فك طيات الخرطوش المتشابكة غير مبال بالأمطار التي عطنت ملابسه وأخذت تضرب في رأسه بشدة، خرجت الآهة من صدري وكدت أعض على بناني غيظا وأنا أراه في تلك الحال، رأيته يحمل الخرطوش ويمضي نحو حنفية المياه، كدت أن أقول له: اترك ما في يدك حتى يتحسن الجو وتعال بجواري.. ولكن أبت أسناني أن تنطقها فقال لي بعينيه دون أن ينطق لسانه :"لن أغيّر مواعيد هديتي لخدوج"!...

قلت في سري وأنا أسمع أصوات الرعد تفرقع الآذان: "لعنك الله يا خدوج حية وميتة!".. دائمًا ما كنت تقفين في طريقي، منذ صبانا الباكر وأنت تجدين كل ما تريدين.. الشعر الطويل الذي تتسربل به الخيل.. الوجه الطفولي بعينيه المتوثبتين الذكيتين.. كل ملامحك كانت تنطق حسنا كأنها لوحة فنان رسمها بمزاج عال وهو يحتسي قهوته المفضلة، طفرت تلك الذكريات على رأسي وأنا أنظر إلى زوجي الذي خطفته مني زوجته الميتة، ضغطت على كلمة ميتة بين أسناني حتى أؤكد لنفسي أنها ليست معنا في المنزل رغم أن زوجي يراها في كل زوايا البيت.. حملت أغطيتي وسرت

إلى فراشي فقد بدأ الجو يبرد بفعل غزارة المطر الذي خف هديره، سمعت خطوه وهو يعيد الخرطوش إلى مكانه بعد أن امتلأ السبيل بالماء، اتجه إلى الدولاب.. كان يظنني نائمة أبدل ملابسه بأخرى جافة.. اتجه إلى المطبخ ليصنع لنفسه شايًا يدفئ به نفسه، قفزت من فراشي، حملت منه براد الشاي، أخرجت طقم الشاي ذا اللون الذهبي.. لا أعرف ما الذي دفعني لإخراج هذا الطقم الغالي من الأواني.. ربما كنت أريد أن أثبت له وجودي وأخرجه من دائرة الذكريات التي توترني.. تعمدت أن أجلس بجواره وأنا أصفي الشاي من أوراق النعناع التي يحبه بها، قال بأسى واضح" ياه! .. شاي بي نعناع ". ثم اتبعها بعبارة "خدوج كانت تترك النعناع دون تصفية ! "كانت أنفاسي تتلاحق وأسناني تصطك عند سماعي تلك العبارة، قلت في نفسي.. خدّوج.. خدّوج! ضقت ذرعا بهذا الاسم .. فوقع الكوب من يدي، سمعته يقول: "انكشح الشر!"، ثم استرسل وكأنه قد استشف ما يغلي به صدري فأضاف "دعيه سأسكبه وحدي"، أراد أن يسكب لي كوبا فرفضت، انزويت داخل أغطيتي، حاولت أن أنام، صورتها لم تفارق مخيلتي .. تذكرت اليوم الذي خطبني فيه بعد موتها بثلاثة أعوام، قابلني في الطريق ..بدا لي وكأنه كبر عشرة أعوام على سنيّ عمره الحقيقي ..كنت قد انتهيت لتوي من إكمالي للدكتوراة ،ظننته قد جاء مهنئا ضمن من جاء ، ضغط على يدي وهو يقول "البشوفك يقول يا دوب متخرجة من الجامعة!" أكملت أمي عبارته حتى تزيل أي حرج قد ينسرب إلى أعماق نفسي "وهي بت متين، إلا القراية دي قالت إلا تصل لي حدها!" .. اتجهت إلى المطبخ وأنا أستمع إلى أمي وهي تكرر وصلتها الرتيبة "كل ما يجيها زول ترفضو وتقول عايزة تقرا!" ، انتفض قلبي وأنا أتذكر رفيق طفولتي يختطف مني دميتي وأنا أجري خلفه وعندما أعجز عن اللحاق به يقذف

الدمية أعلى الشجرة ويطلب مني إنزالها وعندما يترقرق الدمع في عيني يقفز من الشجرة بسرعة ويضربني بالدمية ويجري ...

مرت تلك الذكريات على رأسي وأنا أصب له كوب العصير بعد أن سمعته يطلب يدي من والدي وكان قد تزوج خديجة الفتاة التي خطفته مني ونحن على أعتاب المراهقة ، جمالها ومرحها كانا كافيين بتحويل أنظاره عني، أما أنا فأجبرت والدي بترك الحلة بعد زواجه وانكفأت في الدراسة بثقلي كله ،ورغم انشغالي الكلي بالدراسة إلا أن أخباره كانت تأتيني دون أن أسعى لمعرفتها ..عرفت أنه أنجب طفلة وحيدة عانت ويلات المرض ولم يترك لها والداها بابا لم يطرقاه لعلاجها ولكنها ماتت بعد بضع سنوات ثم عاش الزوجان فترة دون أطفال ثم سمعت بموت خديجة ..

التفاصيل التي سبقت زواجي كانت مألوفة، لم أرتد الفستان الأبيض الذي كنت أتوق للبسه، ذهبت إلى أحد محلات فساتين الزفاف الراقية.. كنت متسربلة بسوادي فإذا بموظفة المحل تقول لي: "الأفضل لك أن تأتي بالعروس لا أن تختاري بدلًا عنها!" جريت إلى عربتي.. اتصلت به والدموع تملأ عيني.. حكيت له ما جرى لي سريعا، رد ضاحكا "يا شيخة ..هسع أنا افتكرتك غيرت رأيك مني..!" أضاف بصوت بدأ لي حزينا: "أنا ذاتي ما داير زفة وحفلة وهيصة !" العمر لم يعد يحتمل ..ثم أكمل عبارته وكأنه يحدث شخصا آخر "كلو زمان سويّنا !"

تذكرت تلك الحادثة وأنا أتدثر بأغطيتي وأتقلب في فراشي ذات اليمين وذات اليسار، لمت نفسي إذ كان ينبغي أن أعرف عند حدود تلك الحادثة أن الرجل لا يعيرني اهتمامًا ولكن قلبي كان يقودني .. انكفأت على جسدي حتى أبدلته لونا ذهبيا،

تركت طلابي وكتبي وأبحاثي حتى نظارتي الطبية ما عدت أعلقها على مقلتيّ، صديقتي هند عندما لمحتني في تلك الحال أطلقت صافرة حادة وهي تلحظ التغيير الكبير الذي طرأ على شكلي وجسدي وأضافت: لو رآك صاحبنا وقتها لما تجاوزك إلى أخرى، نظرت في المرآة ..كان الفستان الكبدي قصيرا ومتناسقا على جسدي حتى كدت أبدو كملكات الجمال.. تركت شعري يتناثر على ظهري.

طفرت الدموع من عيني وأنا أتذكر فستاني الكبدي، قذفت به في خزانة المنزل وأنا أكاد أمزقه وأنا أحكي لهند ما حدث لزوجي وهو يراني لأول مرة بذلك الفستان، لم ير التغيرات التي انتظمت الجسد الذي خرج لتوه من غبار المكتبة وبراثن المراجع والكتب الصفراء، لم يلحظ شيئا من الوضاءة والبهاء التي علت وجهي ..نظر إلى الفستان ،قلّب في دولاب زوجته ،قلّب بين صور كثيرة ،صورتها في الحديقة ،صورتها وهي تضع الحناء ،صورتها وهي تحمل طفلتها ،عشرات الصور ،ثم سل صورة من بين عشرات الصور.. كانت ترتدي فستانا كبديا قصيرا يصل حتى فخذيها، كانت تقف في باب المطبخ، نظرت إلى الصورة وإلى نفسي، كأنني هي، نظرت إلى عينيه ..كانتا مغرورقتين بالدموع.. ذهبت إلى الحمام، مكثت طويلا، خلعت الفستان ووطأته بقدمي ..

تقلبت في فراشي ذاك، ذاكرتي تجتر الأحداث، كان المطر قد هدأ صوته، غفوت قليلًا، رأيت خدّوج أمامي بشحمها ولحمها، كانت تضفر شعرها الذي استطال حتى وصل ركبتيها، نظرت إلى شعري قبالتها كان قصيرًا مجعدًا، نظرت إلى ساقيها الممتلئتين، جعلت أحدق في رسوماتهما ..كانا داخل رسومات الساقين، مرة وهو

يحملها ويطير بها ومرة وهي تجلس في أرجوحة، نظرت في ساقها الأخرى.. كانت ترتدي ثوباً أحمر وتضع جدلة على رأسها .. كان بجوارها يرتدي جلبابا وعمة، دققت في باطن القدم.. الصور كانت كثيرة وبأوضاع مختلفة ..كنت أدقق في صوره لعلني أجد صورة يكون فيها وحده عسى أن أكون بجواره، نظرت ونظرت ها هو وحده ..يا الله! وها أنا ذا هنا ..كنت بشعرات متطايرات ووجه ذابل ،نظرت في باطن القدم ..كانت صورتها واضحة جلية ..كانت تمد لي لسانها ،لم أستطع التدقيق جيدا فقد رفستني عندما رأته يرمقني بنظرة فتركني وهرول نحوها..

قمت من نومي مذعورة ..كانت الساعة تشير نحو التاسعة والنصف ..الجو كان صحوا بعد أمطار الليلة السابقة ،انطلقت أعدو إلى عربتي وأنا أتذكر مواعيد محاضرتي ،وجدت أطفالا يرشون بعضهم بمياه السبيل ،كدت أنهرهم حتى تطوع أحدهم و همس في أذني :"خالتو ،شايفة الولد داك البتكلم مع البت ديك ؟ !" أومأت له برأسي موافقة فأكمل "شخبط ليك عربتك بطين المطرة "، نظرت نحو زجاج السيارة الخلفي ..كان بها قلبان مرسومين بخط رديء ..أمعنت النظر في داخلهما ..كانت فيه صورة خدّوج بهية ناضرة ..كانت تلوح لي بيدها ،وتمد لي لسانها ، ثم تحتضنه ويمضيان.

انتقـام

محاسن الجاك

تسعة عشرة عامًا لم تكن كافية لتحسن وفاء خوض التجربة. اندفعت بكل قلبها نحوه. هو كان ذا تجربة واسعة وخبرة طويلة في الخداع والمكر .. رسم خطته بأحكام للإيقاع بها.. الغريب في الأمر انه كان يفعل ذلك لمجرد اللهو.

حين اكتشفت الحقيقة كان قد حطم كل شيء عذب داخلها وتركها نهب للألم والاوجاع، لاحظت سهام أختها الكبرى ما تعاني منه وفاء. تحدثت معها وفهمت منها كل شيء.. طلبت رقم هاتفه وصارت تحدثه الساعات الطوال، ولأنّه كان ماهر في اغتنام الفرص لم يتردد في الاستجابة لها.

طلب منها مقابلته، لم تدّخر وسعًا في التزيّن والتجمّل، حملت كل أسلحتها الأنثوية وذهبت للقائه. كان ما رأى أكبر من كل تصوراته وتحمله وغروره.. أخذ ينظر إليها مبهورًا، فقد كان يحسبها أقل جمالاً وثقافةً لأنها هي من سعت اليه.

قويت علاقتهما مع الأيام وصار لا يطيق الابتعاد عنها. وبمنتهى المكر طلبت منه أن يتريث قليلًا في طلب يدها وأن يرتب أوضاعه أولاً لأن والدهما متزمت جداً ولن يسمح بفترة خطوبة طويلة الأجل..

تغير حال وليد، وصار أكثر جدية واهتمام، يعمل ليل نهار لتوفير مستلزمات الزواج وبعد عدة شهور كان على أهبة الاستعداد لإتمام الخطوبة ومن ثمّ الزواج ..

حدثته أنّ لها أخت وحيدة تصغرها سنًا ولكنها أثيرة لدى والدهما وتستطيع التأثير عليه لأنها في منتهى البراءة والطيبة ووالدهما يحبها جداً ولا يرفض لها طلبًا وطلبت منه استمالتها الى جانبهم حتى تدعمهما عند الوالد.

وافق وليد على الاقتراح وحدد موعد لمقابلتها، جاء الموعد المحدد وذهبت وفاء مع اختها لمقابلته، اختارت سهام مكاناً هادئًا بعيدًا عن الانظار.

في اللحظة الحاسمة تم اللقاء .... لم يحس وليد بنفسه من هول الصدمة .. ولم تعي وفاء ما يدور واعتقدت أن وليد قد قرر العودة لها وأنه استعان بأختها لإقناعها. ولكن سهام شرحت لأختها الموقف وقالت لها أنها أرادت تعليمها درسًا في الحياة ... صعب صحيح ولكنه سيكون مفيد جداً لها .. وقالت: إنّ كل الذي يهمني في هذه اللحظة هو انتِ .. أختي الحبيبة.

ذهبت الفتاتان وتركتا وليد يعض أصابعه ندما على الذي اقترفته يداه .. مرَّ بخاطره عدد كبير من الفتيات اللائي كن ضحية غدره واستهتاره ومضى هائمًا على وجهه لا يدري ماذا ستفعل به الأيام بعد أن فقد الإنسانة الوحيدة التي أحبها من كل قلبه.

تَقلُبَاتٌ عِند حَافَّة السَّرِير

عمر الصايم

أشعرُ بغضبٍ مِن اِنتهاء الحلم، خيبةُ أملٍ تبللُ فِراشِي! أقسى ما فِي الأحلامِ اكتشاف أَنَّها أحلامٌ محضة، مُخاتِلةٌ ولئيمة. أنهضُ مِن نومِي أتلمسُ طريقِي إِلى كَوْبِ ماءٍ، حلقِي يتشقَّقُ كأرضٍ طينِيَّة جافتْها السحبُ. أرمقُهَا مُمَدَّدَةً إِلى جوارِي، مُنكفئةً على بطنِها، ردفُها الناضبُ يحتاجُ إلى سُحُبِي التِي سرقتْها تخاريفُ النومِ. فِي طريقِي إِلى كَوْبِ الماءِ أَلمحُ يقظةَ جسدِي، تنتفخُ وتتكوَّرُ كَنَدْبَةٍ بَيْنَ سَاقَيَّ، لطالما كنتُ استخدمُها فِي التَّبَوُّلِ الليلِيِّ المنفرد، أفرغُ مثانَتِي وأعودُ ألوِي على أَطفالِي؛ لأتفقدَ نومَهُم، فِي هزيعِ الزواج يتكلَّسُ الأبُ فِي داخلي، وتتقمصُنِي الأمومةُ الدفينة! سأقف لثوانٍ أتأملُ انجرافَهَا فِي النومِ كشجرةٍ سقطتْ فِي النَّهْرِ مُنذُ سنواتٍ.. أتساءلُ مَن أسقطَ زوجتي فِي النومِ البليد، وحملَنِي إِلى برزخِ بناتِ الأَبَالِسَة؟ أَنْدَّسُّ فِي فِراشِي هاربًا مِن أخيلتي التي تنحشرُ بهدوءٍ بَيْنَ ثوبِي وجلدِي. أشعر بِحَكَّة تأكلُنِي، كتائبٌ مِن النملِ تزحفُ ببطءٍ مِن سَاقَيَّ، أتآكلُ وتصدأُ آلةُ بَوْلِي، فجأة تختفي، أصيرُ أملس بلا نتوء عدا أنفي التِي تشتمُ عطرَ أُنْثَي فِي البعيد، عطرٌ ينسابُ مع ضحكتها التِي تنفتحُ لها النوافذُ.

فِي ليلتي هذه أُريدُ ماءً أكثر برودةً، بَلْ أُريدُ لوحَ ثلجٍ يُضَاهِي جبلَ الجليد الذي أذابَه حُلمِي بامرأةٍ فاجرةٍ، ذات طقوسٍ مَنْسِيَّة. لن أنظر إِلى شريكة حَافَّة الفراش؛ فلطالما نظرتُ؛ واجتاحَنِي النملُ، لن أُدَثِّرَ أطفالِي، فلطَالمِا دَثَرَّتُهم ولم تشفعْ لِي الحياةُ أمامَ ضجرِهَا القاسِي! سأَكْرُفُ عطرَ البعيدة أَيْنَمَا طالتْهُ أنفِي، سأحسو الشَّهْوَةَ على أُمِّ رأسي، ورأس مَنْ مَات رغم أنفِهِ. عدتُ أُجَرِّر قدمَيَّ حيثُ لا معركة هُنا، بعدما كنتُ

أسيرُ على حواف أصابعِي؛ الآن أرقد بكبرياءٍ مَزَّقَتْه النَّوايا الساذجة. ظَلَّتْ نائمةً بلا مواربةٍ، نَوْمٌ مفتوحٌ عَلَى مِصْراعَيه، تُرَى هل تحلمُ بإبليس شخصِيًّا، هل يجتاحها بقرنَيه الآن، ويحرقُ جَوْفَها بلسانِهِ الجُهَنَّمِيّ؟ لا يبدو عليها التوعُّك أبدًا، ولكنها عادتها الحميمة، دائمًا ما تلوذُ بالتكاسلِ، والتَّحْدِيقِ فِي العدم، لا تموتُ، ولا تحيا، فقط تنافخُ لينتهي الأمرُ.

قررتُ أنْ أوقظَها قسرًا، أنْ أسردَ لها ما رأيتُهُ فِي نومِي، سأحكي لها بجرأة بَيْنَمَا أنا فِي مَحْفَلٍ مِن النِّسوَةِ المتسربِلَات بالشهواتِ، يحطن بِيّ كنسرٍ صقلتُه الذُرَى، وأماطتْ السفوحُ ريشَهُ عن صدرِهِ، بَيْنَمَا أنا طائرٌ يعشقُ الطِراد، والمناقيرُ المدَببة على ألوانِهَا؛ إِذْ بامرأةٍ تتحدَّثُ كُلَّ اللغاتِ، تجمعُ خرائطَ اللعناتِ على جسدِهَا البديع، وتنبثقُ بخضرتِها مِن بَيْنَ الجائعاتِ. جسدُهَا يرتَجُّ بالاشتهاءِ، ويتكوَّمُ فِي الجنونِ الجامحِ. تلكزُنِي بعينيها لَكزَ مَن لا يخشى ظُلْمَة الاحتضانِ، تُخْرِج لسانَها القانِي على هيأة أفعى هائجة، تتمَطَّى فِي نارِ الانتظارِ، وتستحمُ باللهبِ. قلْتُ لقلبي: تَبَّتْ يداي وما جنيْتُ؛ إنْ لم أدلقْ مائي وأحيلْ نارها فَحْمًا! ثُمَّ أَنَّنِي لففْتُ يدَيَّ حَوْلَ زندِها المتين، سحبتُها برفقٍ، وقذفتُ بها إِلى فراغِي الجَشِع. بدأتْ تكبرُ، تتجمَّعُ سُحبُها مِن كُلِّ نهرٍ، تفيضُ بالمطرِ. بدأَ فراغِي يضمرُ، تَتَقَزَّمُ فقاعاتُ محيطي، وتفرقعُ فِي دواخلِي. تلاشى الفضاءُ، تلاشتْ خضراءُ الليلِ، وتلاشى زوجُك فِي خلايَاه.

لم أذكرْكِ لحظتها، لم أذكرْ أطفالِي النائمين فِي غَفْلَةٍ مِنَّا. كنتُ أتمنى أَنْ أنجبَهُم فِي الحُلُم، أَنْ أراهم يخرجوا مِن بَيْنَ الانفجارِ كقاطراتٍ تنحرفُ عن مسارها للأبد.. حين تركتْنِي المرأةُ كنتُ صريعَ لحظةِ الإفاقة، لم أفهمْ شيئًا مِمَّا حدثَ، ولكنني عشتُ واقعًا لم

أحلمْ به مطلقًا، اكتشفت كم أَنا صفيقٌ، شفَّافٌ، وعميق! رغم الهُوّة، وانحسارِ المرأةِ ـ أَيّ امرأةٍ ـ عنّي لسنواتٍ قضيتُها على حَواف مِن ثلج.

انقلبتْ زوجتِي على شِقِّها المعادِي لِي، تحذو ذِقني تمامًا، بغير عمدٍ أسقطتْ كفَّها على شاربِي. أحسَّتْ برطوبةِ الماءِ الذي تَجَرَّعْتُه بعد حُلمي بشغفِ الظامِئ لإطفاءِ جوفِهِ، تَحَسَّسَتْهُ أكثر وبَدَتْ مرتابةً. فتحتْ ما بَيْنَ جفنيها، فَغَرَتْ محاجِرَها المملوءَة بالنومِ. تسرَّبَ الخوفُ إِلى قلبِي عندما أقعتْ فِي منتصف الفِرَاش كقِطَّةٍ مُتَحَفِزَّة. بدأتْ تَشْتَّمُنِي، تُحَرِّكُ أنفها فِي إِبطي مَنْتُوفِيَ الأَجْنِحة. ترفع رأسها مِني مَقْهُورةً، دمعةٌ توشكُ أَنْ تطفرَ مِن عينيها، ثَمَّة شفقة مُنْدَّسَة فِي وجهها.. قالتْ بصوتٍ منخفض، أكثر انخفاضًا مِن حفيف إِيداع السرِّ فِي مكانٍ غير آمن..

ـ على جسدك عطر امرأة أخرى.

ارتعدَتْ شُعيراتُ شاربِي! وقفتُ أصرخُ فِي أُذنيها..

ـ أنا..؟ مستحيل!

هتفتْ بكلماتٍ مُتَداخِلة، وهَمْهَمَةٍ مَكْتُومة. سألتْنِي بحدَّة

ـ مَتى حلقتَ إِبطيك؟ نِمْتَ إِلى جواري، وهما غابةٌ مُتَعَطِّنة مِن الشَّعْرِ!

أسدلتُ بصرِي على إِبطَيَّ وعانَتِي، أرضٌ جرداء تَحَسَّسْتُها. رائحةُ المرأة تسكنُ أنفِي! زوجتِي القطة تبتسم بأنيابٍ، تُؤَشِّر نحوي بمخالبٍ، وتُهَمْهِمُ بلغةٍ لا أفهمُها.. مِن يومِهَا أقنعتْنِي أَنَّ جِنيَّة ما اختطفتْنِي منها، أَنَّنِي زوجٌ لأُنْثَى أُخْرَى لا تُرَى بالعينِ

البشرية. مِن يومها وأنا أعيشُ فِي عالمين! الجنِيَّة لَمْ تحضرْ أبدًا لمنامِي.. لا أشعرُ نحو الأحلامِ بشوقٍ، ولا نحو زوجتِي بالانجذابِ.

بنات نعش

هيبات الفاتح الطيب

إعتادَ (سُهيلٍ) على مُمارسةِ طُقوسَ كَذِباتهِ المتقنةِ وهو بَين يدي (سَيدةِ الكُرسْي)، لأن امرأةٌ مَسمومةٌ مِثلُها تُجيدُ لُعبةَ البيضةِ والحجْرُ باستطاعَتِها أن تراقصَ بناتَ نعشِ على أوتارِ الخُوفِ ليوقفْنَ رِحلَةَ الهَرولةِ الطَويلةِ خلفَهُ.

ففي فصل بائد من أوراق تلك الحكاية كان قد تفنن في إغواء (السهى) عبقرية الملامح في ذات مساءٍ ديسمبري التفاصيل- ففي ديسمبر يغامر العشاق كثيراً بحبيباتهم- فالسهى كما كان يقول (نعش) مفاخراً: هي جوهرة بناتي.

أغرمت (العرجاء) كثيراً بسهيل وكحال أي والد للبنات كان (نعش) فطناً في أمور العشق، تكفيه نظرة بتمعن في وجه صغيرته حتى يستشف بسهولة ذلك السحر الذي يصيب قلوب الفتيات بالثمالة، لذا أراد أن يكون أكثر حكمة، فابنته الكبرى لم تكن مكتملة الجمال كأخواتها وبالتأكيد ستكون الأقل حظاً بينهن في الزواج، لذا هداه تفكيره الأبوي إلى حل يحقن به كرامة ابنته. قال له حكيم القرية في ذلك اليوم: كيف تربي طفلًا سيئ الطباع وسط بناتك؟ صاح معاتباً: الأطفال ملائكة الطهر في الأرض، أنه ليس بذلك السوء يا سيدي إنما حياة الشارع هي من فرضت عليه ذلك. ثم ضمه إليه بقوة محاولًا إخفاء تلك الرغبة العميقة بداخله ليكون لديه ابناً ذكراً، اشترى الثياب الأكثر بياضاً ظاناً بأن نصاعتها يمكن أن تخلق منه رجلاً آخر.

(سهيل) حان الآن وقت تزويجك يا بني هكذا ابتدر نعشا حوارًا جادًا معه صباح ذلك اليوم، تهلّلت أساريره وكاد قلبه أن يعانق السماء من فرط السعادة، هذه هي اللحظة التي طالما كان في انتظارها حتى يستطيع أن يصارحه بعمق عشقه لسهى، ولكن سرعان ما تلاشت ملامح تلك الابتسامة عندما أردف (نعش) قائلًا: (العرجاء) هي كبرى بناتي ولن أطمئن عليها إلا معك، كانت العرجاء تسترق السمع من وراء حجابها وقلبها يخفق طرباً، يااااه اعشق ذكاءك أبي- واعتلت خديها وردة آسرة الحمرة- أصاب الخبر (سهى) في مقتل فهي لا تنفك تصحو وتنام على أنغام صوت (سهيل)، ولوهلة أحست أن رأسها سينفجر من شدة الالم الذي عبثا تحاول مقاومته، وبدأ جليًا أن غمًا مهيبًا قد جثا بثقله على مكامن روحها. (ولكن الأمر يرتبط بسعادة أختي) أخذت تردد هذه العبارة بصوت خائر في محاولة بائسة منها زجر عاطفتها، ولكن سهيل وكلماته وتلك النظرات بل كل تصرفاته تنبئني عن مدى عشقه لي، حسناً إذا كان حقًا يبادلني ذلك الشعور حتمًا سيخبر أبي.

أقيمت الولائم وقرعت طبول الأفراح على مدى الليالي السبع التالية التي كانت بنات القمر سيدات الموقف فيها، فعوالم مثلهن عاليات الأجر لا يستطيع دفع أجرتهن إلا رجل مثل (نعش) جم الثروة.

سار (سهيل) في موكب العرس بالقرب من (العرجاء) وقلبه معلقًا خلفه، تركه مع (سهى) ورحل فهذا زمان الثروة والمال وليس للحب مكان هكذا أنهى صراعه الداخلي..

في ركن قصي آخر من فصول هذه الأحجية وقع الخبر كالصاعقة على قلب (سيدة الكرسي)، فالعاهرات عندما يعشقن وتصفعهن الخيانة يصبحن أكثر ضراوة من أفعى (المامبا) الأفريقية السامة، فلدغة واحدة منها تكفي، إذاً هي لم تكن لسهيل أكثر من مجرد حذاء قذر رماه في أقرب مكب نفايات؛ فاشتعل قلبها حقدًا وغيرة.

في ليلة 31 ديسمبر من ذلك العام المعتم الملامح هل كان على نعش أن يودع ديسمبر هذا العام؛ أ ولم يكن حسبه أن ينام كما كان يفعل عادةً. ولكن رائحة الخيانة النتنة لا تهدأ إلا بعد أن تعلن عن نفسها بقوة، فخطيئة العاشقين لن يمحوها إلا أن تفوح رائحة الدم بالمكان، هكذا حاول سهيل إقناع سهى الفزعة، بينما طوق بإحدى يديه الآثمتين عنق والدها منهار القوى من هول ما رأى وباليد الأخرى راح يهوي بخنجره الحاد على صدره. سقط نعش الذي بدا مذعنًا لهذا المصير بينما أطلقت سهى صرخة استغاثة متأخرة. وسرعان ما حلقت تلك الغيمة السوداء حولهما فالغربان كما تجذبها الأشياء اللامعة والملونة تشدها سوداوية الموت الهزيل الداكنة. مات نعش وقلبه المكلوم لا يكاد يصدق أن طهارة سهاه قد لطخت، ولكن أشباه الرجال كسهيل ممن اقتلعت الشجاعة من قلوبهم في المهد لا يمتلكون خياراً آخر أفضل من إطلاق العنان لأرجلهم خلف الريح في مثل هكذا مواقف.

كالكوبرا الملكية تربصت سيدة الكرسي بسهيل، فلعنتها التي ظلّت لأعوام تختر السم في حلقها من أجل أن تحقنها في عنقه قد حان موعد قطافها، فعلى حسب رواية الفرقدين لها أن بنات نعش قد أعددن العدة لقتل سهيل وتقديمه كقربان على مذبحة آلامهُنّ، لذا ارتدت ثوب ملكات العدالة وجعلت السماء مسرحاً إغريقياً معتقاً

ليشهد بصمت سمية انتقامها في مشهد تراجيدي مهيب نفخت فيه نفخة واحدة من حلقها الصدئ كانت كفيلة بتحويلهم إلى نجوماً في فصول روايتها، ولكي تضمن أبدية لعنتها واستمرارية لعبة انتقامها جعلتها لغزاً في هودنا (الحبوبات)؛ أغنية مجهولة الملامح –بنات نعش– أربعة منهن يحملن نعش والدهن ويركضن بأقصى قوة في مشهد أبدي تتبعهن اثنتين هما السهى في شهرها السابع من الحمل وأختًا سادسة لهنّ تجر طفل أختها العرجاء بيد وباليد الأخرى تحاول لملمة ذيل ثوب حدادها. وعلى مسافة ليس بالبعيدة تركض العرجاء، عبثًا تحاول اللحاق بالركب وهي تكيل السباب على سهيل والسهى، وسيدة الكرسي في مراقبتها لهنّ نصبت نفسها أميرة أبدية للانتقام في انتظار لحظة انقضاضها المرتقبة على سهيل الذي جعلت الفرقدين طعماً له وهو يظن بأنه قد نجا.

كروموسوم واي

هـــالة بشار

رفع يده..

رفعها ثم وضعها..

رفعها مرة أخرى حكّ أذنه..

أنزلها ليضعها في خده.. لتنزلق وتستقر على ذقنه غير الحليق.

كانت كلها محاولات..

كانت محاولات كلها..

محاولات كلها كانت.

لم تنتبه لها إلّا أخيرًا..

كان يريد أن يريها خاتم زواجه.

هل أراد أن يقهرها؟

هل أراد لها أن تسلك طريق الألم؟

أم الألم يطرق قلبها بمطرقة الحزن فيطفو حزنها على سطح حياتها؟

بل أراد أن يقهرها..

هذا وفقًا لحالة التربص التي عشعشت في خيالها منذ أمد بعيد.. حالة التربص التي تجعلها تشتم رائحة الورد الجميلة كما بقايا بصل الطبخ في يدها.

لم تشعر بأي نوع من القهر.. ولا شيء من الألم إلا كمن شاكته شوكة صغيرة وتلاشي ألمها سريعًا..

ليس لديها تطلعات أو رؤي.

إذا جاءتها جرأة وتطلعت.

تطلعها يندرج فوق وتحت وبين أواني الطبخ والستائر والمفارش.. وأماني لحيازة كمية كبيرة من الحلي الذهبية والمجوهرات وهذه الأمنيات تتدرج تحت بند التطلعات الذكية وفقا للمثل الذي يقول القرش الأبيض لليوم الأسود.

المساحات محصورة جدًا.

التواجد دائما في الخلف.. خلفه.

محاصرة دائمًا..

دائمًا في حالة حصار.

حينما تبدأ طفولتها بالتفتق والازدهار تحاصر بالختان الفرعوني.. درءًا للمشاكل الأخلاقية.. كما يظنون.

كبرت قليلاً؟

يبدأ التفكير في سترها بالزواج.. جملة من الجمل تؤكد أن الزواج هو المبتدأ والخبر في آن واحد.. هو الفعل والفاعل والمفعول به..

مبتدأ للفتاة وخبرها ومنتهاها.

هو الفعل والفاعل والمفعول به.

هو الفعل حين يفعل ما يفعل بالفتاة من حالتي الترقب والانتظار.

هو الفاعل حين يمنحها كرامة اجتماعية فاعلة أكثر من غير المتزوجة.

والمفعول به حين تطمس معالمه ودوره الأزلي في تكوين المجتمع الصالح .. تطمس بالمباهاة والملايين وفطور العريس وطقوسه العبثية..

جملة أن الزواج سترة للبنت أشبه بحالة تحريم مسبق .. وكلمة الستر التي تقود إلى التستر ومنها تنبثق كلمة سر تلاحق الفتاة منذ ولادتها.. حيث لا ضجة و لا زغاريد تشبه ضجة وزغاريد المولود الذكر .. ثم تبدأ المباركة.

إن شاء الله تكون من المستورات.

ربنا يسترها.

ربنا يسترها ويكبرها.

مستورة يا أخوانا.

فتحيط بها من وقتها الأسوار .. أسوار الستر الخفية .. حركة محدودة وصوت خفيض .. مفردات منتقاة.

تزوجت.

تزوجت؟

تبدأ محاصرتها بالإنجاب. إذا أنجبت أحدثت خيرًا .. إلا والشر المستطير يتابعها إن لم تنجب .. شر لدرجة التشاؤم.

أنجبت.

أنجبت؟

ما نوع الجنين الذي أنجبته؟ بنت أولى.. بنت ثانية.. بنت ثالثة.

ستواصل سباق الإنجاب مع رصيفاتها إلى حين يأتي مولود ذكر.

أتي مولود ذكر؟

كتبت لها النجاة. إلا وشبح الزوجة الثانية يطاردها في صحوها ومنامها.. يطاردها في كل الأمكنة.. في الوقت الذي ليس لديها يد أو دور في الموضوع.

دور قريب أو بعيد.

ف الكروموسوم واي المسؤول من إنجاب الذكور خاصته هو.. بيده هو مفتاح إنجاب الذكور .. الباب الذي يولج به إلى جنة الرجال وجحيمهم مفتاحه عند الرجال.

أي عدل هذا؟ اللهم لك الحمد.

رأفة بنا نحن النساء..

الله جل في علاه أنقذنا من المسؤولية هذه.

مسؤولية تجشم تحديد نوع المواليد الرجال.

هكذا دارت في خيالاتها كل هذه السجالات وهي ما زالت تذكر كيف أنه تزوج الأولى ف أنجبت البنت الأولى .. ثم حملت للمرة الثانية ف أنجبت البنت الثانية.

دارت الأيام دورتها .. مسها .. فأنجبت زهرة ثالثة..

تضجر لكن ما تكلم.

جاءت الرابعة أكثر تفتحًا.

تلتها الخامسة

بدأت تظهر بوادر مشكلات في سماء علاقته الزوجية..

سحب وضباب.. ضباب في العلاقة

في الوقت الذي كانت حياتهما وتوافقهما مصدر توافق وسعادة القرية ب أجمعها.

وحالة التوافق بينهم تماثل حالة انسكاب السمن على العسل.

بدأ يتضايق من جاره الذي ينعته بأبو البنات.

وحين يلاقيه ويسلم عليه.. ازيك يا أبو البنات

وين أنت؟ من أمبارح ما شفناك يا أبوهن.

في قمة الضيق وضبابية الموقف تكورت بطنها للمرة السادسة.. خرجت بنتا.

قرر في داخله أمرًا.

سيمنحها فرصة أخرى أو فرصتين .. فكلام الناس يطن في أذنه.. كادت أذنه أن تقد من الكلام والطنين.

مولود.

مولود ذكر.

مولود ذكر يحمل اسمك.

مولود ذكر يرث هذا المال.

هذا الجهد والتعب.. تعبك وجهدك الذي أنتج مالك.. في حاجة ليحميه..

مولود ذكر.

تفشي الخبر

لكن..

(تفشي الخبر)..

عن لوعته و حنينه إلى صبي .. نساء القرية بدأن في تزيين بناتهن.. حتى البنات اللواتي تفلطحت أفخاذهن من زمن قريب .. كلهن دخلن في القرعة التي نتاجها الحصول على أم المولود الذكر.

عاد في ذاك المساء وأصدر زوبعة رعدية بصوته.. اضطربت قليلاً .. دخلت وخرجت .. دون أن تدري لماذا دخلت

أو خرجت.

ولأي شيء قادتها أقدامها للداخل وأخرجتها إلى الخارج.

اقترب منها و قال: قدامك فرصتين لتجيبي لي ولد .. عاوز ولد أو سأتزوج في الحال.. انصرف منها و هو يردد.

مولود ذكر.

وإن طال السفر.

مولود ذكر وإن طال السفر

قبل أن ينصرف كانت قد أعطته ظهرها.. و قالت: اللهم إني أعوذ بك من ضآلة الحال و قهر الرجال و سوء المآل.

قدمت ضآلة حالها لأنها شعرت بنفسها ضعيفة و لولا ذلك لما وجد طريقا إلي قهرها و أخرت سوء المآل لأنها لا تدري ما الذي يحدثه هذا القهر .. و توسط التعوذ من قهر الرجال بين ضآلة الحال و سوء المآل لأن له ذراع تمتد هنا و أخري مشتبكة هناك.

في اللحظة ذاتها الهايبوثالمث يصدر إشارتين مجتمعين في مرة واحدة إلي القونادو الخاص بها .. احتفل هذا الأخير في ذاك الشهر احتفالين غير عادته .. مرة واحدة مجتمعة بالشمال واليمين.

اتجهت إلى المقرون أخرجت قنينة تبعثرت في الحال رائحتها .. تضمخت بعطرها .. كان متمددًا في وسط السرير يملأ جسده المكان .. انسلت إلى فراشه بهدوء واختلست طرف الفراش ونامت.

بعد أشهر معدودة صحت من نومها علي ألم طلق لم تعتده من قبل .. أشبه بموجة عاتية.. خرجتا ..زهرتان .. اختصرت الفرصتين في مرة واحدة ..

لم تشعر بالندم من فوات الفرصة التي جاءت مندسة في أختها .. لم تندم أبداً فقد كانت مرهقة من كثرة الولادات.. ولادات متلاحقة. مرهقة بنوع من القلق يطاردها كل حين و أسئلة حول كيفية إرضائه .. زوجها .. إرضاؤه بقضاء الله و قدره و تذكيره بأن الله. (يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا و إناثا و يجعل من يشاء عقيما).

دخل مسرعا وجدها ممسكة بإحدى البنتين .. أخبرته في هدوء حين قالت باقي يومين للسماية..

متذكر

متذكر

رد باقتضاب وتوتر و أردف ستكون السماية الأخيرة في البيت دا.. الأخيرة ..الأخيرة.

سألته بذات الهدوء عندك أسماء للبنات؟

لا لا ما عندي. سميهن إنتي .. خرجت كلماته أكثر توترًا.

اتجهت نظراتها بعيدًا عنه وبعد فترة..

فترة ليست بالقصيرة كما إنها ليست طويلة أخبرته بأنها سوف تطلق على البنت التي خرجت أولا اسم أسرار و البنت التي تأخرت مما اضطرت القابلة أن تجرها سوف تسميها إصرار ..

بدون اكتراث قال لها على كيفك .. سميهن زي ما تسميهن.

توأم غير متشابه في الوقت الذي كانت تميل أسرار نحو الاسمرار كانت إصرار بلون قاتم .. لون البن المقلي بطريقة وضع البن بين جمرات النار في قدح خشبي ثم تحريكه بنفضه في الهواء ثم إرجاعه..

توأم غير متشابه في حالة تآزر معها و تآمر ضده حينما قالت له: بناتي بنفعني و ما عندي شغلة بيك.

عرس طوالي الليلة قبل باكر ..

قالت هذا الكلام بشجاعة تحسد عليها .

ثم التفتت إلى الحائط متمتمة.

الرجال..

البليلة..

الرجال البليلة..

البليلة أم حجار

أخبرها بإنه هذه المرة لا يريد دعوة أي أحد من رجالات القرية.. سوف يعمل السماية تحت بند كرامة و سلامة.. سوف يذبح الخراف ويتم توزيع اللحم في بيوتات القرية بدون أدني ضجة.

و في نفسه كان يقول سوف أقيم عرس عظيم لأم الولد الجديدة وبعد أن تأتيني به سأقيم العرس الأعظم .. كل القرى المجاورة سوف تحتفل في بيتي ذاك اليوم .. سوف تقرع طبول النقارة من جهة ومن جهة أخرى ستدق طبول النوبة حتى الصباح.. سأقيم حلقة ذكر كبيرة وتأتي فطوم .. فطوم الخبيرة في رمي الزلابية لتصنع صنيعها من الدقيق وخميرة البيرة. الشاي تدور كفاتيرة على الناس مع الكبابي وكل زول في القرية يشرب مرتين وإذا أراد أكثر من ذلك فله ما يريد.. ثم تأوه.. أخرج آهة عميقة من الداخل.

سألته إن شاء الله خير وسلامتك من الآهة.. انتبه حينها أنه

مع أم البنات ما زال. طلبت منه أن يحمل إحدى البنتين ويقبلها كعادته حينما تولد له بنت في كل مرة. حيث كانت هذه زيارته الثانية لها بعد مخاض عسير .. الأولى كانت بعد أن دخل وتحمدل لها السلامة والبنتين طريتين بالماء الأمنيوني.

زيارته الثانية تأتي في اليوم الخامس .. ما كان مهتم بأمر الضيفتين الحلوتين الجديدتين بل كان كل همه يدور حول التفاوض من أجل شراء جمل للعصارة الجديدة.

فهو يمتلك أسطول عصارات بلدية تنتج زيت السمسم النقي .. إضافة إلى أنه مزارع قدير .. يمتهن زراعة السمسم مهنة متوارثة أباً عن جد.

فهو مزارع

ابن مزارع

إبن مزارع

إنصاع لحديثها .. جلس بجانبها وأخذ أسرار وضعها على كتفه ..كانت تتميع كما الصغار يتميعون ..أحس بشيء دافي يسيل علي ظهره كانت قد تقيأت.. نظرت الأم نظرات اعتذار وقالت إنها لم تربت على ظهرها بعد أن أرضعتها وما تجشأت لأن صراخ إصرار أزعجها فأخذتها عجلى.

قام بتبديل الجلابية .. بعدها خرج مسرعاً من الدار متجهًا نحو السوق حيث يعمل في إدارة العصارة.. وفي طريقه إلى هناك التقته إحدى

قريباته سلمت عليه وأخبرها أنه رزق ببنتين.

لامته لوم يائس بائس.

ليه ما كلمتنا بيهن؟

نحن ما سمعنا والله.. ثم وسوست له .. شهق مرتين و قال ح أجيكم بعدين

جركان متوسط من زيت السمسم النقي يتقدمه .. يسبقه إلى بيت قريبته التي التقته في الصباح .. يتقدمه ويسبقه بواسطة أحد صبيانه.

كانت تميل إلي الغروب شمس ذاك النهار .. انصرف الصبي من الباب بعد أن قام بتسليم الجركان الهدية من أجل الزوجة المستقبلية.

قبل آذان المغرب بقليل كان قد وطئ بقدميه فناء الدار .. دار قريبته الأرملة ..خمسينية. .خلاسية فوضوية الملامح و بنتيها الاثنتين تشبهانها تماماً.

اتفضل.. اتفضل ..

سمع الصوت من بعيد بعد أن قام هو بتصفيق حاد للتنبيه ..كانت الغرفة في نهاية الحوش وأمامها كشاشة وبين باب الدار و غرفتها مع ابنتيها فناء واسع .. كانت قد وضعت في فناء الدار عنقريبين و بينهما تربيزة عجوز من خشب متهالك وبجانبها

إبريق وبرش للصلاة مصنوع محليًا من السعف وحوافه زخرفت بقماش قديم. اتكأ على العنقريب الذي مسافته أقرب إلى حيث تتنفس أم الولد المرتقبة ليخبر قريبته ضمنياً بموافقته وأنه قام بنقض القرعة التي أجريت قبل أسابيع في القرية.

قام بنقضها لأسباب أهمها أنها قريبته ويريد أن يصنع معروفا ويقوم بمساعدتها ويتجشم معها التعب في تربيتها للبنتين.

والسبب الثاني وهو الأهم من السبب الأول وفق ما كان يضمره في ذاته .. أنّ القرعة التي قام بها أتته بامرأة عذبة وهو يريدها بكراً .. بكراً يريدها ليست ذات خبرة بالرجال فهو يستحق امرأة بكراً.

ألا يستحق امرأة بكر؟

تساءل حين تساءل وجاءه الرد في حينه بأنه يستحقها.

المال لديه

والصحة والقوة الجسدية

رددها في نفسه ومرة أخرى بهمس إنها تستحقه هو لا سواه ويستحقها هي.

جاءت الفتاتان تمشيان علي استحياء تتقدمهنّ أمهنّ .. وقف وقفته المعهودة حين السلام يده اليسرى مغروزة في وسطه و اليمنى ممدودة .. كان يمدها قبل أن يصل إليه

من أراد أن يسلم عليه بزمن طويل .. يدل هذا التصرف وفقاً لتحليل أصدقاؤه بأنه مبادر و هاش باش خاصة مع انفراج فمه متسعاً بالضحك أثناء السلام.

أعداؤه يقولون أن تصرفه هذا يدل على استعجاله للأمور وضحكته هي الدليل على سخريته من الناس لأنه مترف بالمال.. والذين يقفون في الوسط وفي الشقّ المحايد يقولون أنه لا هذا و لا ذاك.. زول عادي يمارس حياة عادية.

كانت صلة القرابة التي تربطه بأم الفتاتين كالآتي .. جدته لأبيه أخت جدتها لأمها.

رجعت الفتاتان بعد أن صافحنه.

جلست أمهما معه .. دار الحديث في مناحي مختلفة. ثم طلب منها أن تخبر الفتاة القصيرة بأنه يريدها لتكون له .. زوجته الأولي طويلة و هذه المرة يريدها قصيرة. و قبل أن تذهب لتستشير ابنتها بدأ في الحديث .. حدثها عن محصول السمسم هذا العام. والتهيؤ للعام الجديد والتجهيزات التي تقف على ساق واحدة.. حدثها كثيراً لم يكن متعلماً لكن ملماً ومثقفاً ثقافة داخل وخارج الحدود. وشغوفاً بمعرفة ما يدور حوله وحول الآخرين.

و كانت هي أيضاً غير متعلمة وما كانت ملمة إلّا بقليل من الثقافة الدينية بيد أنها كانت مترفة ثقافياً .. ثقافة حول مجتمعها ومحيطها الضيق.

متخصصة في صناعة الأكلات المحلية ولها ذوق عالي في اختيار الملبوسات فقد كانت مندوبة تسويق لجاراتها المترفات لتختار لهنّ أثوابهنّ من سوق القرية الذي يعقد مرة في الشهر.

أما عن ثقافتها الدينية فقد كانت تعرف كيف تصلي وتعرف نواقض الوضوء وتعرف متي تغتسل رغم أنّها توقفت عن الاغتسال الواجب منذ زمن لكنها تغتسل من باب المندوب كل جمعة.. درست قليل من علم التوحيد وهذا القليل قيد أرجلها بقيود تشتبك مثل جنزير السجان كلما أرادت أن تمضي للفكي والمشعوذين.

السبب الآخر في كونها غير ملمة بالأحداث .. السبب المجاور للأمية هو أنها كانت مشغولة بتوفير لقمة عيش شريفة للبنتين بالرغم من أن جاراتها كنّ يساعدنها.

و السبب الأخير أن مصدر الأخبار لديها تعطل .. راديو قديم منبعجة أسلاكه من الداخل.

تعطل جراء نسيانه في فناء الدار وهطول المطر عليه مما أدى إلى حالة تبكم إلا من شخير وشخشة متقطعة فأصبحت إثر ذلك منقطعة عن العالم.

حدثها كثيراً لأنه يعيش حالة غبطة استثنائية نتيجة للموعد الذي ينتظره ويرجوه ويتمناه.

موعد مع فتاة الطاشر القصيرة ذات الصدر الناشز والصوت غير النشاز..

حدثها عن معارضة الداخل ومعارضة الخارج وانتهازية النظام وجرجرته وتماطل ساحق وتزييف للحقائق وحوار في الردهات وولائم وملذات.

ابتعد عن الإطار الذي يعيشون فيه ويتعايشون معه. إلى واقع آخر حيث اقتتال سافر ودمار من أجل إقامة دولة خلافة مزعومة على الأنقاض.

وعندما سألته: ما معني إرهاب؟

أخبرها بأنها حالة من الرهبة والخوف ولتقريب مسافة الفهم والإدراك لديها .. سألها عن إحساسها عند سماع صوت الوشاشة .. الصوت الذي تصدره لتنبيه فرائسها..

سألها: ما الذي تشعرين به وقتها؟

أخبرته إنه إحساس متداخل مزيج من الخوف والرهبة والرغبة في الجري والركض المتسارع لمغادرة المكان.

بالضبط هذا هو الإرهاب. جاء رده محركاً يده أمام وجهه ليهش حشرة من حشرات الليل ثم بدأ في الشرح.

الإرهاب نوع من أنواع الإجرام يلتزق بالإسلام. صنيع إجرامي يتلفع زوراً وبهتاناً برداء إسلامي.

وكلمة إسلام تعني سلم وسلام ومودة مصحوبة بسلوك مهذب.. سلم وسلام داخلي للإنسان يترجمه لأفعال خارجية.. ألاقيك ألقي عليك السلام .. تأمن جانبي فقط لأنني قلت السلام عليكم..

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده).

المسلم يده لا تبطش بالآخر..

لا يؤذي أحداً.

وقبل ذلك لا يجعل أحد يتألم منه بكلمة يلهج بها لسانه.. ومن كان غير ذلك فهو يلتزق بدين سمح كريم .. دين التسامح و السماحة و المسامحة.

الإرهاب .. رهبة أولاً وهروب ثانياً للإنسان العادي وقبله انبهار بفكر موسوس ومعادي للقيم الإنسانية وغلو للشخص الذي يقوم بمعالجة هذه الأفكار المسوسة داخل عقله ثم يعتنقها بعد أن يزاوجها بالتطرف مدمراً ذاته أولاً وأسرته وقريته إضافة لما يحدثه من ضرر فتاك بالآخرين.

بعد كل هذا الشرح بادرته بالسؤال مرة أخرى.

قلت الإرهاب شنو؟

هو شنو؟

ولشنو الناس بتكتل في بعض بالشكل دا؟

وبالصورة دي؟ معقول الكلام دا؟

ومعاهم نسوان كمان؟

ثم بلغتها البسيطة قالت وهي تجرجر في ثوبها لتغطي جبهتها.

ياخ أنا عندي فارة في التكل مجنناني لحدي أسة ما قادرة أكتلها أو أخليها.. مرات أقول أتخلص منها أقول إمكن يكون عندها صغار أقوم أغير رأيي وأخليها.

تقول لي بيكتلو بني آدمين عديل؟

كان الليل قد أليل وكان ينبغي له الذهاب لا سيما والقرية ضيقة جداً. ولا يصح له أن يبقى مع أرملة وطفلتيها لهذا الوقت المتأخر.

قبل أن يذهب أخبرها بأنه سوف يأخذ معه عروسته إلى الصعيد حيث مزارع السمسم فهو سيتغيب أشهراً هناك لمتابعة التحضيرات للموسم ثم الانتظار حتى يشتد عود المحصول في الحقل ثم يعود بعدها.

امتعضت المرأة من هذا المطلب فهي تعرف قسوة الحياة وشدتها هناك. قالت له إنها تخشي على ابنتها من الحشرات وتقصد بالحشرات الثعابين .. ذلك لأنها فقدت زوجها أب البنتين بعد أن رحل عنها وترملت من بعده وتيتمت بنتيها بسبب لدغة ثعبان والسبب الأخطر هو عدم توفر مصل اللدغات الثعبانية السامة .. عدم توفره في قريتهم والقرى المجاورة.

منذ ذلك الوقت تحول قلبها الموله بحب زوجها.. قلبها الكبير الواسع مثل فناء القرية وفضائها تحول إلى قلب حاقد ضيق مثل أزقة القرية الضيقة مملوء كراهية مثلما تملأ شوارع قريتهم النفايات الكريهة.

قلبها ينبض بالكراهية تجاه كل المقصرين في حق أهل القرية بدءًا بصاحب كمائن الفحم الذي كان يعمل زوجها معه حين حدوث الحادث .. كان الثعبان ملتفاً داخل حزمة الحطب ولونه شبيه بلون أعوادها .. متخذاً حيلة من حيل الطبيعة للتخفي والمحافظة على ذاته.

عندما جاء زوجها ليرص الحطب داخل الكمينة قرصه الثعبان في منطقة العرقوب ومات في اليوم التالي في نفس ميعاد اللدغة بالضبط وبالرغم من المحاولات اليائسة لمداواته بعلاجات و أدوية بلدية ..

فشلت كل المحاولات ومات بعدها تركها وفقدت معه كل شيء..

كل شيء.

فقد كان هو كل ما تملك في دنياها.

هو وعمل يده.

قلبها كره صاحب الكمائن لتقصيره في حقوق العمال لديه . . كان هذا واجبه هو كما تعتقد هي .. واجبه توفير الأمصال للعمال ولا يعتمد على شفخانة القرية المتهالكة التي لا يوجد فيها غير البندول وبقية الأدوية تباع في السوق السوداء بثمن باهظ لا يستطيع أحد شراؤه إلا حاكم الإقليم أو تجار السمسم.

كان هذا واجبه هو كما ظنت وما زالت تظن ذلك رغم أن هذا الأمر مرت عليه سنوات عشر .. سنوات مليئة ذكريات وعذابات وشقاء.. كرهت فيها الحاكم المحلي.. سافرت الكراهية بطريق وعر لتصل إلى حاكم الإقليم و انتشرت في الفضاء العريض.

تحول كرهها للثعابين ليشمل أي شيء يشبهها .. الحبال خاصة وكل شيء ملتوي للحد الذي ليس في بيتها حبل للغسيل بل تنشر ملابسها وملابس البنتين على العناقريب أو يتم تجفيفها على حوش القش.

لكنها بعد هذا كله رضخت لمطلبه ووافقت أن تمضي ابنتها معه إلى مزارع السمسم.. وكان حتى هذه اللحظة لم تخبرها بحديث الرجل حولها لكنها كانت متأكدة من أنها لا ترفض لها أي طلب.

رضخت الأم بعد حالة إغراء أشبه بالصفقة بعد أن وعدها بأن يأتيها بكل شيء فقط عليها أن تتمنى .. أمنيات فضفاضة تبدأ بماء الزير وتنتهي بلبن الطير.

حينما حدثته بأن ابنتها حديثة عهد بعادة النساء التي تأتيهن في الشهر مرة تبين له أن عمرها لا يتجاوز الثالث عشر سنة.. طافت في خياله تلك اللحظة .. لحظة سلم عليها بقوام قصير وصدر ناشز أو كما بدت له حينها رؤيا خاطفة.

أخرجه من خيالاته صوت الآذان.

آذان العشاء يتردد أن حيّ على الصلاة.. حيّ على الفلاح.

كانت والدة طفلته أو زوجته الطفلة قد دخلت إلى مخدع البنتين وأخبرت طفلتها القصيرة بالخير الوفير الذي ينتظرها وعيش رغيد وجنة موعودة. والتفتت نحو طفلتها الأخرى وقالت لها عقبالك..

عقبالك أنتِ كمان.

عقبال ما أفرح بيك.. يا بتي

ما نطقت البنت بكلمة .. خرجت أمها سريعا وأخبرته بأنها قامت بمهمتها وهي الآن صارت له وما عليه إلا الاستعجال بإكمال المراسم.. لكن اشترطت عليه عدم الإشهار في الوقت الحالي إلى حين ولادة المولود المرتقب.

سألها بلهفة: البت وافقت؟

ثنت عنقها وأخرجت ضفيرة من ضفائرها وضعتها في المساحة بين أنفها وشفتها العليا.. تتلاعب تشتم في رائحة شعرها المودوك بلا مبالاة.. تأتيها رائحة الودك متزامنة مع رائحة المحلب والمجموع ليكونوا خليط الكركار.. الذي تتزامن رائحته مع نطقها بموافقة بنتها عندما تقول سألتها و سكتت و السكات رضا و عليك أن تتوكل.. سأتكلم مع عمها جاي السوق باكر عمها الذي يقطن في قرية من قري السافل.

بني بفتاة الطاشر عند مزارع السمسم .. في وسط الحقول دجج قطية فاخرة الصناعة.. دججها بأمنياته وابتهالاته وانفعالاته.

لولا العمال كانوا مخلصين نوع من الإخلاص النادر .. إخلاص المريد لشيخه.

لولا ذلك.

لشهد الموسم حالة بوار وكساد ودمار لأنه أهمل مراقبتهم وما كان يتخطى باب القطية المدججة بانفعالاته وابتهالاته وأمنياته إلا مضطراً في حالة واحدة.

حالة الاضطرار لقطع الجمار.

مضت الأيام سريعاً.

وحان وقت العودة.. جاء الحصاد مفاجئاً للجميع كانت هناك أزمة في شوالات لملمة المحصول من كثرته واندفاقه. كما كانت هناك مفاجأة أخرى في انتظاره تقف جنباً إلى جنب مع تفاؤله بفتاة الطاشر التي فتحت له أبواب عديدة من الرزق بعد أن انهمر الخير عليه انهمار المطر الاستوائي.

فتاة الطاشر رجعت إلى أمها تعاني حالة نفاخ معهودة والتي تأتي كنتيجة حتمية حين يمكث رجل جوار امرأة لشهور دون أن تمنعه موانع وحواجز وأسوار أو حتى جدار هش متهشش..

أسرار وإصرار كبرتا قليلًا. بدأت أمهن تعودهن علي الجلوس رغم إنفداع عنق كل واحدة منهما إنفداعها للوراء و اندفاعها هي لتسندهن بعد أن هيأت لهن مقعدين بعد زحزحة الرمال و غرستهما في الأرض لتؤكد إنهن وردتين مزهرتين من نبتة هي ذاتها التي تجلس بجوارهن ..النبتة المزهرة.

انطلق خبر زواج فتاة الطاشر بمجرد مغادرتها القرية نحو مزارع السمسم.. انطلق بخاصية سر خليهو بيني و بينك .. نساء القرية تلتقي واحدة بالثانية توسوسان ببطء بعد أن تنتهي الثرثرة سريعاً وقبل أن تودع الأخرى أختها تقول لها سر خليهو بيني و بينك.

انتهى السر حيثما ابتدأ بعد أن دار دورة كاملة في أرض القرية في زمن أقل من ضحوية نهار غائظ.

آخر من سمع الخبر في القرية هي أم البنات فقد كان الجميع متوجس من أن يوصل لها هذه الفجيعة فتحدث لها صدمة مؤذية تصل أذيتها للبنات خاصة البنتين الحديثتين.

فقد كان الجميع مع فرضية تقول قد يجف اللبن في صدرها من هول الصدمة فيكون الأثر قاسيا يتجاوزها إلى روحين صغيرتين بريئتين لم تكونا قد أكملتا شهرهما الأول.

النسوة عشن حالتي صمت و وجوم تامتين .. لكنها كانت تقرأ شيء في أعينهن حينما يزرنها .. كانت تطفر من أعينهن نظرات الشفقة عليها .. تطفر فعلته التي فعلها. والكل يعلم وهي حتي الآن لم تعلم .. تعلم شيء واحد فقط هو الآن في مزارع السمسم غياب معهود سنوياً .. صادف أن بقراتهم دخلن في موسم الجفاف وغرزن.. بائعة لبن الماعز تجد عندها سوق رائجة حين تبيع الحليب والروب والفرصة والسمن.

أخبرتها بفعلته.. أخبرتها بما فعل زوجها الذي هو الآن في مزارع السمسم كما تعتقد هي.. شعرت إذا تكتمت عن الأمر ستعيش بضمير معذب فهذه خيانة عظمي لأنها استأمنتها وأدخلتها بيتها وأكلت معها الملح والملاح ..أخبرتها وكأنها ما أخبرتها فقد كانت مهيأة مسبقاً ومعبأة بالشدائد لمواجهة كل كرب.

انصرفت بائعة اللبن وتركتها تجول ببصرها على زهراتها الثماني بزهو وتردد في سرها الحمد لله .. الحمد لله على النعم الظاهرة والباطنة .. فقد كانت تعرف الله.

في الوقت الذي كان الحدث قد أخذ وقته و صار إلى اندثار كان عندها طازجًا .. مثل بيضة خرجت لتوها من رحم دجاجة ونزلت على رمل فتلزق الرمل بها ..في اللحظة التي كانت تنظر فيها إلى زهراتها نظرات تضج بالحمد .. سمعت وقع خطواته النشطة ..كانت حاسة النظر متركزة مع زهراتها وسمعها الحاد مع وقع خطواته.

انحني فيها وسلم ..كانت جالسة. نادي على البنات التففن حوله ولثمن يده لثمات تقدير وحب أبوي غامر .. حب أبوي لأب غاب في مزارع السمسم مجهداً نفسه ومجتهداً من أجلهنّ.

ما أظهرت أمهنّ أي شيء بل هيأت نفسها له وغابت نحو ساعة بعد أن استأمنت أسرار و إصرار لأختهن الكبيرة .. تركتهما معها بعد رضعة مشبعة لكل واحدة منهما.

ما لم يجده في فتاة الطاشر وجده عندها حبه القديم وعشرة قديمة وتفاصيل لحياة بالرغم من أنها ما كانت طويلة جدًا عقد وبضع سنوات لكن حدث فيها تراكم فعلي لأحداث جعلته يشعر بوخزات الضمير في حالة التجلي والاقتران معها للحد الذي كاد أن يعترف لها ويعتذر لكنه لم يعترف ولم يعتذر لأنه كان يكره الاعتراف والاعتذار.

أعترف لشنو؟

الزواج للمرة الثانية حق من حقوقي.

وأعتذر لشنو؟

ما بعتذر

هكذا ردد في نفسه.

قضى وطراً

وأعطاها ظهراً

نعم .. فقد أعطاها ظهره ونام كأن لم ينم من قبل. نام نومة أهل الكهف.

حينما أفاق مساء ذاك اليوم وجد فتاة الطاشر قد جاءت بفتاتها الأولى وسط تحفظ و تكتم شديدين .. الفتاة الأولى لها والتاسعة له حصيلته الآن تسعة فتيات 8 من الأولي و 1 من الثانية. هكذا قام بعملية حساب سريعة ابتدأ بخنصر يده اليمني وانتهي بإبهامها ثم بدأ بخنصر يده اليسرى و انتهي بالسبابة.

مازال متكتماً ومتحفظاً حيث لا ينفع التكتم في قرية محدودة الأطراف ونسيجها متماسك للحد الذي حين يكح أحدهم في طرف القرية يسمعه الذي بطرفها الآخر وسرعان ما يجده ممسكاً بثمار القرض بكلتا يديه.

كان وجلاً من شماتة أم البنات لكنه استبعد فرضية شتمه وتعييره بقلة الصبر واستلقاء أذنيه لتستمع لكل من هبّ ودبّ.. تسمع تحريشهم وأفكارهم المغرضة وحتى يقي نفسه كل هذه الشرور قرر أن ينتقل لفترة مؤقتة لإحدى العصارات في قرية تقع عند ملتقى طرق.. لكن قبل أن يمضي إلى هناك ذهب محملاً بمؤونة عامين إلى فتاة الطاشر بارك لها المولودة ورمي يمين الطلاق بالثلاثة وخرج منها وهو يردد (كفى الله المؤمنين القتال) ..كان يرددها دائما كلما استصعب عليه أمر و تراكمت همومه.

مضى إلى حيث قرر أن يمضي دون أن يودع أهل بيته الأول.. مضى وأم البنتين ما زالت تعد في الأشياء التي امتلأ بها نصف فناء دارها حتى إنها لم تنتبه له حين غادر ..فر ..فر منهم..

كمن رأى مجذوم

أو كمن رأى أسد جائع.

جوالات العدس .. جوالات بصل عديدة سوف أقوم بتقطيعه وتجفيفه قالت سراً محدثة نفسها ..

ثور .. سأبيعه واشترى بثمنه معزات..

جوالات الدقيق .. جوالات السكر.. جوال بن .. البن الذي تعشق شرابه جنباً إلى جنب مع الشاي.. الحلبة والعطرون في حالة تلازم.. الحرجل والشيح للنفساء.. الفحم جوالاته متراصة ستتخلص منه فقد حاربت الفحم بعد رحيل زوجها الذي تسببت كمائن الفحم في طريقة موته العاجل. ومن وقتها وهي تستخدم نار الحطب.

لم يترك شيء مما أتى به..

كل شيء

كل شيء

حتى أعواد الكبريت ضمنها في الحاجيات .. جولتها التفقدية للأشياء جعلتها تنسى نفسها وتنسى طفلتها التي جاءت بطفلة لم تعد لها شيء تشد به أودها .. لا نشا الذرة ولا شوربة الحمام.

وصل هو للقرية التي كانت على مفترق طرق كان يريد تسلية نفسه بالقادمين من شتى المناحي يريد أن يذوب في وجوههم و يذوي داخل هوياتهم ثم يخرج ليعيد تشكيل وصياغة ذاته من جديد شعر بأنه يعاني شيء من التشتت ..كيف استطاع تصديق الناس وقبلها لم يكذب نفسه التي قالت له إذا بحثت عن أخرى ستجد ما تنال وستطول المحال.

مكث وقتاً ليس بالقليل يرتب فيه نفسه من الداخل ويعيد إليها نوع من الثبات والصبر الذي افتقده ..كما عاد يصلي بخشوع بعد أن كان ينقرها نقراً في الشهور الماضية ..عاد له إيمانه والتسليم بقضاء الله وقدره منذ الأزل أن يهبه ويمنحه تسع فتيات.

تسعة أشهر مكثها بعيدًا في غربته..

تسعة أشهر بالتمام والكمال.

وفي اليوم التاسع من الشهر العاشر جئن إلى العصارة نسوة.. كنّ اعتدن المجيئ بعد أن وزن لهن أرطال الزيت التي اعتاد أن يزنها لهن دائما ومعها كيلوهات أم جقوقة خفق قلبه.

خفق قلبه حين سمع حديثهنّ حول مغصة الضرة التي منحت الأولى ولد.. خفق قلبه أكثر وأطرق لهن ليسمع أكثر ..تأكد له حين سمع إحداهن تشرح للأخرى أن مغائص المرة التانية خلتا تجيب ولد.

ما كان يعد الأيام و لا الشهور لكنه دخل دكانه و بدأ يحسب بسرعة بطيئة ..

متى جاء؟

فوجد أنه قد مكث فترة كافية جداً إذا كان في ذاك اليوم قد أحدث معها شيء.. اليوم الذي تجاذبته فيه نفسه بأن يعتذر لها أو لا يعتذر وقبلها أن يعترف لها أو لا يعترف ثم قضي وطراً وأعطاها ظهراً.

خفق قلبه أكثر.

تلجلج.

قام من المكان ليجلس في مكان آخر.

شعر بنوع من العطش.

شرب حد الارتواء.

لكنه ما زال يشعر بالعطش.

أكل حفنات من أم جقوقة.

ثم رجع حسا حسوات من الماء.

ترك باب الدكان مفتوحاً

ومكان نومه

أوكل كل شيء لصبيانه وارتحل إلى قريته الأم.

ومع مشارف القرية وجد الناس متكومين .. أكوام أكوام.

فقد صادف سوق آخر الشهر كل الناس في السوق يتحدثون عن الوجع الذي أحدثته فتاة الطاشر لزوجته الأولى للحد الذي جعلها تأتي بمولود ذكر.

امتدت الزغاريد أربعين يوماً بلياليها كان قد تقاعد مع الزغرادة بعدد تسع زغرودات نهاراً ومثلها ليلاً .. في النهار تكون في بيته ثلاث عند الصباح مع شراب الشاي وثلاث منتصف اليوم وثلاث آخر النهار قبل المغرب .. أمّا ليلاً فتزغرد في بيتها وسيسمعها هو في بيته ..كان لا يريد أن يزعجها بأن تأتي في جنح الليل ..نقدها نقوداً ما رأتها من قبل وما تحسستها بيدها في يوم من الأيام.

ولد بعد تسع بنات.

أقيمت الولائم والعزومات ودقت الطبول والنوبات .. وابتهج الجميع في الاحتفالات .. غنوا ورقصوا في الحفلات ثم رجعوا واستغفروا بعد أن غشوا حلقات النوبة .. وهناك من كان في النوبة لم يغادرها وآخرون اكتفوا بالرقص والغناء ولم يغادروا مكانهم فكونوا ثلاث مجموعات.

مجموعة أقصي اليمين.

مجموعة أقصي اليسار.

مجموعة وسطهما.

جوالات دقيق الزلابية التي قامت بصنعها فطوم مسيرة كيلومترين بعد أن تمت رصرصتها مع بعضها البعض ..كل القرى المجاوزة كانت حاضرة لمباركة الولد.

جوالات الدقيق الفارغة صنع منها بساط بطول كيلومترين بعد أن مدت مداً من بوابة بيته إلى مكان عمله في سوق القرية.

قام بتغيير حالة المشي..

يرفع خطوة ويضع أخرى.

وقوراً بدأ أكثر من ذي قبل.

أصدقاؤه قالوا حالة حمد وشكر .. جاءوا وباركوا بساط جولات الدقيق.. الذي كان بلون أبيض ناصع.

أعداؤه دخلوا في النار ومرقوا وكالوا له اللعنات والشتائم .. نعتوه بالتكبر التعالي وقالوا تنكر لتراب الأرض.

ومن التراب خلق.

وسيعود للتراب..

ومنه يبعث مرة أخرى.

الناس الذين كانوا في الوسط المحايد قالوا: الفرح حالة تستوجب الفرح وكفاح سنين طويلة للحصول على مولود ذكر ليس بالأمر الهين وتظموا مشاركة أسموها.

المشي على بساط الدقيق.

فرحاً معه ومؤازرة وبدوا في تعبيرهم عدا أكثر من أصدقاء..

كان الوقت عصراً حين بدأت المسيرة من باب بيته إلى مكان عمله .. مسيرة صامتة لم يحدثوا أي جلبة حتى لا يظن أعداؤه بأنه قام بإيجارهم ليؤطر حالة الكبر داخله.

فقط كانت هناك إشارات تدل علي الفرح مثل طرقعة بالأصابع .. طرقعة خفيفة وعلامات أخرى مثل التبسم حين يلتفتون إلى بعضهم البعض وترتسم على شفاههم البسمات.

كان قد دخل على أم البنات بعيون تدمع فرحاً في ذاك اليوم .. مدد كلتا يديه يهز فيهما و هو يهتف.

ولد

ولد

ولد

أخيراً ..يا أم البنات ..يا أمهن.

أخيراً..

ح تكوني أم (.....)

ثم سكت.

سكت عن الكلام واندفعت هي في الحديث .. وقالت أنا التي سوف أسميه.

بعد سنوات الصبر ..صبرها

سنوات الشكر ..شكرها

سنوات العكر.

سنوات تعكر فيها صفو العلاقة بينهما بعدم صبره يأتي مولودها التاسع لتعود كل الأشياء إلى طبيعتها الأولى .. فرحته ولهفته تجاهها .. اهتمامه الذي حول مجراه لفتاة الطاشر عاد ليصب في مصبه الأول.

صمته والضيق الذي لا يستطيع أحد تفريجه .. تلاشى وعاد لانبساطه انبساط ومسامرة .. عاد لضحكه القديم.

توهطت في عمق عنقريبها وهي ترضع في مولودها وقالت له ..

شوف

شوف هنا دا.

الولد دا جاء نتاج صبر وشكر.

صبري عليك و على أذاك و شكري لأنو ربنا أهداني ثماني بنات.

عشان كدة أنا ح أسميهو.

ح أسميهو صبار شكور.

صبار شكور؟ متسائلا.

أيوة..ردت بثورة ثم هدأت.

أيوة نتاج الصبر والشكر.

بينما تناديه صبار شكور وهو يجري في أزقة القرية ..كان أهل القرية وخصوصا النساء ينادونه ب "جني المغصة" وآخرين يطلقون عليه جني المغائص ..هناك نساء يطلقن الصاد سين ..فيقلن له جني المغسة يا جني المغسة.

جني المغسة مشى المدرسة.

جني المغسة رجع من المدرسة.

مغصة الضرة التي منحتها مولود ذكر.

الضرة فتاة الطاشر..ذات الصدر الناشز..

والصوت غير النشاز.

رحلة لبيت العفاريت

غادة إبراهيم سوار

كانت تنظر من النافذة للشارع من غرفة قديمة في ذلك البيت المهجور بمحاذاة أقصى القرية التي تقع بجانب النهر في وداعة....

الغرفة رطبة بعض الشيء ورائحة عفونة غير منفرة

ناتجة من مخلفات وأوساخ تحت نافذة الغرفة المطلة على شارع طويل ممتد حتى النهر.. بتعرج واضح.

وتنهدت بصوت مسموع فأثارت ذاك الغبار الناعم على سطح النافذة وصارت تكح وتعطس بصورة مزعجة، ومع الغبار الذي أخذ يتصاعد في شكل حلقات أمامها أخذت تفكر في أن هذا المكان كان يعجّ بالحياة في زمن مضى.. وخاصة هذه الغرفة حيث كانت مرقد جدتها لأبيها وكانت عامرة بالضيوف لمكانة الجدة في نفوس أهلها خاصة وأهل القرية عامة فهي قابلة الحي والحي المجاور..

كان المنزل عامراً حتى حدثت تلك الحادثة المشهورة التي أدت لنزوح الجدة القابلة إلى الخرطوم مع أصغر أبنائها.

وفي يوم ماطر وخريف وفير سمعت طرقات على باب المنزل عالية وعجولة كصاحبها في منتصف النهار وفي وقت المطر..

الكل أصابته الدهشة من ذلك الطرق إلا القابلة التي علمت بفطنتها العلمية أن صاحب الطرق قدم لطلق ولادة مستعجلة، وقد كان.

وذهبت مع الطارق وهي تتأهب للخروج.. سأل أبناؤها عن مكان ذهابهم فقال الطارق أقصى القرية وأحضر معه حماراً ليقلّ الجدة لمكان المرأة التي داهمتها الآم المخاض قبل معادها

وذهبت الجدة وغابت زهاء الأربع ساعات حتى استبد القلق بأولادها وأحفادها..

وتحرك نفر من أولادها وبعض الجيران للبحث عنها في أقصى القرية لا سيما وأنّ مقدم الليل قد بات وشيكاً.. تحركوا وعند وصولهم أقصى القرية كانت البيوت التي وصفها الطارق خراباً ليس بها حياة.

فاستغرب الجميع وبدأ الهلع يدخل نفوسهم وتحركوا بسرعة لإحضار خبير الأثر لموقع بيت الجدة القابلة

وقد كان.. وتتبع الرجل الخبير أثر الحمار وأقدام الجدة ولكن الآثار كانت تتجه نحو النهر لا أقصى القرية.

واستبد الخوف بأهلها وبدأت مسيرة البحث نحو النهر وكانت مسيرة يحفها القلق والخوف من المجهول،

وبدأ الليل يرخي سدوله وآثار المطر على الارض.

ووصل القوم طرف النهر ووجدوا أنَ الآثار تنتهي عند النهر وكانت مفاجأة مفزعة وصرخت وأغمي عليّ،

وعندما أفقت وجدت ظلاماً دامساً وأصوات وهمهمات بعيدة ووجدت أهل القرية كافة في طرف النهر وندهت اسم جدتي وهدهدني أبي ألا أخاف وإن شاء الله سوف تحضر جدتك.

ونام الكل على طرف النهر واستيقظنا على صوت جدتي وهي تنادي أبي بصوت عال به خوف ظاهر.

وذهبنا نحوها ووجدناها شبه مستلقية على الأرض نصفها العلوي يرتفع عن الأرض والدموع تتبلل ثوبها.

وحمدنا الله على رجوعها سالمة

وكان الفضول من أين أتت فكانت إجابتها غريبة.. لقد كنت في النهر؟

فقال كبير القوم فلنذهب بها لمنزلها.

فصاحت لا لا لا أريد الذهاب إلى المنزل أريد الذهاب لمنزل ولدي بالمدينة.

وذهبت أمام المنزل دون أن تدخل..

ثم دخلت وجلبت ملابسها وذهبنا بها إلى منزل ولدها الذي يسكن المدينة، وكانت قليلة الكلام كثيرة الصمت لا تتحدث عما حدث لها في تلك الليلة.. وكنت أزور منزلها وغرفتها كثيراً عندما اشتاق لها.. تلك الغرفة القديمة في البيت المهجور أقصى القرية من ناحية النهر..

تم بحمد الله



2023



9 789180 260381

دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm